

الباب الثاني

تعقيب ومراجعة

يشتمل هذا الشطر من الكتاب — وهو الباب الثاني منه — على
الفصول التالية :

- ١ — معنى التاريخ .
- ٢ — غاية النوع .
- ٣ — الآلة .
- ٤ — خواص المادة والنظرة « المادية » .
- ٥ — الايمان .
- ٦ — العوالم الأخرى .
- ٧ — عالمنا .
- ٨ — أفريقية وآسيا .
- ٩ — المجتمع .
- ١٠ — الأسرة والمرأة .
- ١١ — الفن والعلم .
- ١٢ — خاتمة في سطور .

١ - التاريخ

هل للتاريخ الانساني معنى ؟ هل للماضى رابطة بالحاضر تهدي الى المستقبل على سبيل اليقين أو على سبيل الظن والترجيح ؟
يخطر هذا السؤال على الذهن كلما نظر الى المستقبل ليستطلع خباياه ، ويعود الذهن بعد الجهد الجهيد بجوابين مختلفين كلاهما يحتاج الى دليل .

نعم ، للتاريخ معنى يدل على خطة مطردة بين ماضيه وحاضره ومستقبله .

كلا . ليس للتاريخ معنى ولكنه مصادقات تتكرر أو تتناقض على غير وتيرة معروفة .

والذين يقولون بهذا الرأي يحسبون أنهم خلصوا من السؤال والمناقشة ، وانهم غير مطالبين بالدليل ، لأنهم ينكرون ولا يدعون .
لكنهم في الواقع مطالبون بأدلتهم كما يطالب بها القائلون بالخطة والتدبير ، فان الاثبات والنفي يتساويان في طلب الحقيقة ، وان اختلفا في ساحة القضاء وليس المدعى وحده هو الذي يبحث عن الحقيقة ويسأل عنها .

ان الكواكب والسيارات تجرى في أفلاكها وتطلع في بروجها ومنازلها ونعلم من حركاتها الماضية كيف تكون حركاتها التالية ، ومتى يعرض لها الكسوف والخسوف وأين تشرق وأين تغيب .

فلم تجرى حركات التاريخ الانساني على غير هذا النسق ؟ وكيف ينتظم مدار الفلك ولا ينتظم مدار الحياة الانسانية ؟

من قال ان النظام هنا موجود كالنظام فى حركات الأفلاك ولكننى أجهله ولا أعرف من ماضيه وحاضره ما يدل على مصيره فهو — بحق — صاحب القول الذى يعفى قائله من الدليل .

أما الذى يقرر الاختلاف جزما وتوكيدا بين حركات الأفلاك وحركات الأمم ولا يرى فى ذلك غرابة ولا يسأل له عن سبب فهو الذى يقرر حكما معتسفا بغير دليل ، ولا بد له من دليل .

لم يختلف نظام الكواكب ونظام الأمم ؟ ولم يعتبر هذا الاختلاف أمرا طبيعيا يدعيه من شاء ولا يلزمه البرهان على ما يقول .

ان انكار النظام هنا ليس بأيسر الجوابين ، بل هو عند البحث فى أسبابه وتنتائج أصعب الجوابين وأغربهما وأحوجهما الى البحث من جديد ، الى أن يستقر البحث على قرار .

من قال بالخطه المتبعة والتدبير المقدر فليس من اللازم أن يبسط أمامنا الخطه المتبعة بتفاصيلها ويضع أيدينا على أوائلها وخواتيمها ، وكل ما يلزمه « أولا » أن يدحض حجة الفوضى والارتجال الأعمى ، وأن يقرر الفرض المعقول ثم يقرر أن الواقع يؤيده ويجرى فى مجراه ، وأدل من ذلك على صحة الفرض المعقول أن الغرض المقصود من الخطه المتبعة يتحقق بما يظهر أنه يناقضها كما يتحقق بما يظهر أنه يجاريها ويمضى فى طريقها . وسنرى أن هذه الدعوى يسيرة الاثبات ، أو أنها على الأقل أيسر اثباتا من دعوى الفوضى والعمل الجزاف .

أما نفى الخطه المتبعة وادعاء المصادفة المحضة فليس من اليسر بالمكان الذى يحسبه من يقولون بالمصادفة على أى وجه من الوجوه ، وانهم ليقولون بالمصادفة على وجوه كثيرة ، دليل بعضها غير الدليل الذى يقوم به ادعاء الآخرين .

فالمصادفة عند بعضهم مرادفة لمعنى الفوضى والخط في الظلام ،
تهدم اليوم ما تبنيه وتبنى ما تهدمه ، وتتقدم وتتأخر في العمل الواحد
وفي الساعة الواحدة ، وتتصرف في عموم حركاتها وأفعالها كأنها مئات
من الأضداد يجذب كل منها الى ناحيته ولا يستطيع أحد أن يعلم أنه
يجذب في الناحية الواحدة مرتين ، ومن ادعى ذلك فلا حاجة الى تفنيد
قوله بالبحث الطويل وراء حوادث الماضي والحاضر ، فان ظواهر اللحظة
الواحدة كافية لتفنيد ما يدعيه ، وان فهمه للمصادفة حتى على هذا الوجه
لا يتأتى بغير وجود النظام الذى ينبغى أن تقاس اليه مصادفات الفوضى
والخط في الظلام ، ولا بد من بعض النور لنعلم كيف يكون ذلك
الخط في الظلام .

والمصادفة عند غير هؤلاء لا تنقض النظام ولكنها قد تصاحبه وتنسجم
وقد تلازمه في حالات وتفارقه في حالات ، وعلى هذا النحو تفهم المصادفة
في مذهب الفيلسوف الكبير شارل بيرس Charles Peirce رائد البرمجية
المشهور . فانه لا يفهم المصادفة كأنها الضد المناقض للقوانين الطبيعية ،
بل يفهم منها أنها قوانين في انتظار التكوين ، وان قوانين الكون لم تتم
جميعا في لحظة واحدة ولم تكن هكذا كما نعهدها الآن في كل زمن وكل
ظاهرة طبيعية ، ولكن القوانين الكونية أخذت في جريانها مجرى العادة
على درجات وأدوار متعاقبة ، ومن الجائز أن يشمل القانون الواحد كل
ظاهرة من ظواهره في الكائنات المادية ولا يشمل جميع الظواهر فيما
يتعلق بالحياة ، ومن أمثلة ذلك عنده أن قانون الحركة الممكنة التى تطرد
وتنعكس لا ينطبق على حركة النمو في النبات أو الحيوان ، وأن الحقائق
التي تستخرج من حركات الأجسام في الجملة لا يلزم أن تطابق حركات
أجزائها ، أو جزئياتها الدقيقة كل المطابقة .

فالمصادفة عند الفيلسوف يبرس لا يتحتم أن تناقض القانون الطبيعي
أو تبطله ، وقد يكون حكمها كحكم مشروعات القوانين أو حكم
انقرارات الفرعية في اصطلاح المشرعين ، فمن قال بها لم يحسب من
القائلين بالغاء الخطة المتبعة في سياسة الكون .

* * *

وتفهم المصادفة بمعنى غير ما تقدم عند فريق من القائلين بنفى القصد
والتدبير في حركات التاريخ وحركات الطبيعة على الاجمال ، فلا هي
فوضى تناقض القوانين ولا هي تنمة للقوانين أو زيادة عليها تجاورها
ولا تدحضها .

فعند هذا الفريق من القائلين بالمصادفة أن المصادفة هي القوانين
الطبيعية ذاتها ، وأن القوانين الطبيعية انما تولدت من المصادفة بغير
تدبير مقصود .

قال أحد هؤلاء : اننا لو فرضنا أن فردا أمام صناديق الحروف يرتبها
جزافا على كل وضع محتمل لتكونت منها في وضع من الأوضاع كتب
مفهومة كاليادة هوميروس ، لأن الإلياذة مجموعة من الحروف على وضع
من الأوضاع لا بد أن ينتهي اليه التعديل والتبديل في ترتيب حروف
الصناديق على طول الزمن ، وليس أطول من الزمن الذي مضى على
الكون مضطربا متقلبا بين ألوف الألوف من الأشكال والقوالب التي
تتناسق أحيانا وتتضارب أحيانا ولا بد لها من التناسق على شكل من
تلك الأشكال في وقت من الأوقات .

وهذا القول ضرب من التخمين يستلزم وجود التدبير وراء ذلك
التبديل أو التعديل ، لأنه يستلزم « أولا » أن يجرى التبديل أو التعديل
في وضع الحروف على كل وجه محتمل ولا يدع وجهها واحدا يتخيله

الذهن الا صار اليه ثم عدل عنه الى غيره ، ويستلزم « ثانيا » أن يكون هناك اجتناب متعمد للخطأ وأن يكون ذلك الخطأ معروفا بالنسبة الى الصواب المقصود في النهاية . والا فان الفرد يمكن أن يقع في أخطاء متعددة ويعود اليها أو الى مثلها بغير نهاية ، فان قدرنا أن ذلك لا يقع فنحن نقدر اذن أن هناك تدييرا يقود يديه ويوحى اليه أن يختار ترتيبا بعد ترتيب على كل وضع يخطر على البال ، وقد يضع الألفات في موضع الياءات أو يضع الحروف جميعا في عين واحدة فلا يؤدي تكرار وضعها الى نسق تتألف منه الكلمات ، وان مصادفة كهذه المصادفة لهي أدل على الغاية والاستقامة على طريقها من قول الذين يقررون قيام القوانين من البداية هكذا بطبيعة مستقرة في أصل الوجود ، وهو قول غريب — ولا ريب — ولكنه أقل غرابة من الخطأ الذي يتكرر على وجه ولا يعود الى الخطأ مرة أخرى ، ولا يدع احتمالا واحدا الا استقصاه كأنه يحصى جميع الاحتمالات بغير نسيان ولا اخلال .

وآخرون يقولون ان القوانين ليست بقوانين في لبابها ، وانما نحن جزء من هذا الكون ثلاثمه ويلائمنا ولا بد أن نشعر بالوفاق بين وجوده ووجودنا فنسمى هذا الوفاق قانونا وما هو بقانون . انما نحن مستقرون في عالم من العوالم وهذا الاستقرار هو العلاقة القائمة بيننا وبين عالمنا نسميها نظاما وليست هي بنظام في جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات .

وفحوى كلام هؤلاء أن القانون لا يوجد وليس من طبيعته أن يوجد ، وأنه اذا وجد فمن الواجب ألا نكون نحن موجودين على وفاق معه ، لأن هذا الوفاق يلغى تصورنا للقانون في جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات ، وفحوى هذا الكلام مرة أخرى أننا بين عالمين لا يتشابهان :

عالم نستقر فيه ولا يوجد فيه القانون ، وعالم يوجد فيه القانون
ولا قرار لنا فيه .

وعلى أى معنى من هذه المعانى فهنا المصادفة نرى أنها حل قاصر
عقيم ، أو نرى أنها فى نهايتها اغضاء عن الحلول وبحث موقوف كأنه
القاء للعبء عن الكاهل فى منتصف الطريق ، مع تجاهل البقية الباقية من
الطريق ، فليست المصادفة اذن أقرب الحلول ولا أضمن المواقف ،
وليست هى كما يحسب أصحابها أمانة علمية تنتهى عند حدود المعرفة
الانسانية ، لأنها فى هذا الباب أقل من حرف (س) الذى يشير الى
المجهول ويتركه مجهولا الى حين . فان حرف (س) أمانة علمية لا شك فيها
من جانب الباحث الذى يجهل الحل ويعترف بجهله اياه ، ولكن المصادفة
جزم برأى ونفى لرأى مخالف له ، وهو الرأى القائل بالتدبير ، ومن
جزم بهذا الرأى بغير دليل قاطع ينفى ما عداه فليس له أن يسمى ذلك
أمانة علمية ، وان كان من العلماء الأمناء .

انما الأمانة فى مسألة كهذه أن نقف منها موقفنا من الأرصاد الجوية
التي تصيب وتخطىء وقد تخطىء أكثر مما تصيب ، وهى — مع ذلك —
تنبئنا عن ظواهر طبيعية محكومة بقوانينها التي لا يمتري فيها باحثان ،
فما من عالم يقول ان الرياح وأشعة الشمس وعوارض المد والجزر
وحراة القشرة الأرضية وطبقات الجو العليا تندفع بغير ضابط وتسكن
لغير سبب ، وما من عالم يزعم أن النبوءة عنها مستحيلة مع الوقوف على
جميع أسبابها وعواملها ، غير أن الرأى السليم فيها أن نفهم أنها عوامل
طبيعية قابلة للتقدير الدقيق بجميع تفصيلاتها وتقلباتها ، ولكننا لانحيط
بها جميعا ولا نحقق النتائج على صحتها لأننا لا نحقق الأسباب على

صحتها ، وهى هى تلك العوامل المحسوسة المتكررة الخاضعة للمراقبة والتسجيل فى مواقعها من الأرض والفضاء .

ونحن نسمح لأنفسنا بالجهل فى أمثال هذه الظواهر الطبيعية ونسمح لأنفسنا بالتردد فى الحكم عليها ، ونقرر وجود الضوابط لها ونحن عاجزون عن ضبطها . فأحرى بنا أمام العوارض التاريخية التى تتسع لمجهولات الطبيعة الظاهرة والباطنة أن نقف منها موقفا كهذا الموقف وأن ندين بالأمانة العلمية على هذا النحو فلا نزيد عن حرف (س) الذى يرمز الى المجهول ، حتى نستبدل به جوابا أقرب الى الوضوح والبيان .

ولسنا نريد أن نخطو خطوة واحدة وراء الحد الذى تسمح به الأمانة العلمية حين نفضل القول بالتقدير على القول بالمصادفة العمياء . ولكننا نريد أن نضيف النظريات العلمية الى التجارب المقررة ، لأن الأمانة العلمية تقضى علينا بأن نطرق كل باب من أبواب التفسير ولا نغلق بابا منها بغير برهان .

ان الأرصاد لم تثبت لنا شيئا قاطعا عن حركات الكواكب والنويات وعن السوالب منها والموجبات والمتردد منها بين السلب والايجاب تارة الى هذا وتارة الى ذاك ، ولكننا أضفنا النظريات الى التجارب فيما نعلم عنها فصحح التقدير فى كثير من الأحوال .

نتكّن عندما اذن شجاعة النظريات العلمية لتفسير الظواهر المطردة فى تواريخ الأمم ، لا بل هو الواجب العلمى وليس بالشجاعة العلمية وكفى ، اذ كان الواجب يأبى علينا أن ندع نظرية من النظريات دون أن يكون لاهمالها سند ثابت لا مراجعة فيه .

وأحرى بالمفكر العصرى أن يتوسع فى مذهب الفيلسوف الكبير وليام جيسس الذى شرحه قبل هذا القرن العشرين فى مقاله البديع عن

ارادة الاعتقاد (١٨٩٧) وسماها أحيانا بشجاعة الاعتقاد ، وحجة المفكر العصرى فى ذلك أن الزمن قد تقدم بنا كثيرا فى هذه الوجة وفرض علينا شجاعة أدية غير الشجاعة الأدية التى كانت مفروضة علينا فى عصور الحجر الظالم والتقليد الأعمى والاستسلام الدليل للخرافات والأوهام خوفا من اغصاب الطغاة أو اثاره الدهماء . ففى تلك العصور الغاشمة كان الشك واجبا عقليا وكان اعلان الشك شجاعة أدية نفسية ، ولكن هذه الشجاعة فى عصرنا هذا سيف يضرب فى الهواء وحرب فى ميدان خلو من الأعداء ، وانما الشبح الجديد الذى يتقاضانا شجاعتنا الأدية هو شبح العناد فى الانكار والانطلاق الى الطرف الآخر وهو طرف الاحجام عن اظهار الاعتقاد أو الميل اليه خوفا من مظنة التأخر والجمود ، فأصبح الانكار مجارة للعرف أيام الجهالة والجمود .

يقول الفيلسوف الكبير وليام جيمس فى مقاله عن ارادة الاعتقاد :

« ان القضية التى أَدافع عنها هى : ان طبيعتنا الوجدانية لا يحق لها بل يجب عليها أيضا أن تفصل فى مسألة الاختيار بين الآراء كلما كان الاختيار بينها داعية صدق لا تقبل الحل بالوسائل العقلية ، لأننا اذا قلنا فى هذه الحالة : دعونا نترك الباب مفتوحا ، فهذه حالة وجدانية لا تختلف عن القول بنعم أو بلا ، وفيها نفس المجازفة بفقدان الحقيقة » .

ويقول فى مقاله هذا وهو قريب مما نسميه بشجاعة النظريات :

« ان الاعتقاد — حين نقيسه بالمقياس العلمى — لابد أن يسبق الاثبات العلمى ، ونزيد على ذلك أنه هناك طائفة من الحقائق يكون الاعتقاد عاملا من عواملها كما يكون معبرا عنها ، وأن العقيدة بالنسبة الى هذه الحقائق لا تعتبر جائزة أو مناسبة ولا زيادة ، بل تعتبر مع ذلك

جوهرية وضرورية لا غنى عنها ، وأن هذه الحقائق لا تصبح حقائق حتى تكون عقيدتنا هي التي جعلتنا كذلك » .

وعلى هذه السنة نكون علميين ولا نقنع بالفلسفة وحدها اذا وضعنا النظرية العلمية مكان القانون العلمى المقرر وفسرنا ظواهر التاريخ بمعنى القصد والغاية ، ورأينا أن الاعتماد على الشجاعة العقلية هنا أولى بنا من الاعتماد على الراحة والقول بالمصادفة هربا من تكاليف الدعوى واسقاطا لمؤونة التفسيرات .

ليكن هذا المذهب فى دراسة التاريخ نظرية علمية تقيس المعلوم على المجهول وتطرق أبوابا من الاحتمال المفتوح لا يجوز للعقل الأمين أن يوصدها ويحرم النظر فيها بغير برهان .

ودعوانا أن نظرية التاريخ المفهوم ، أو نظرية الغاية فى التاريخ ، تفسر لنا أمورا كثيرة لا تفسرها المصادفة البحتة بغير معنى ، فضلا عن المصادفة التى تلغى المعنى وتحسب الحوادث فوضى تخبط من ماضيها الى مستقبلها خبط عشواء .

وعلينا أن نبني دعوانا على أساس صالح لاقامة البناء عليه ، وهذا الأساس هو مطابقة الواقع للغاية التى يمكن أن تتخيلها اذا قررنا أن التاريخ تدبير يشير الى وجهة ، فما هى الغاية التى يتصورها العقل ويتطلبها البحث من وراء حوادث العالم بالنسبة الى النوع الانسانى وبالنسبة الى الانسان الفرد وبالنسبة الى الطوائف والجماعات ؟

انا اذا استطعنا أن نوفق بين الحوادث المتفرقة وبين هذه الغاية جاز لنا ، بل وجب علينا ، أن نقول بمعنى التاريخ ، وذلك ما تتحراه ونرجو أن تتيبنيه فى المقارنة الموجزة بين بداية التاريخ المعروفة وبين حاضره المشهود .

٢ - غاية النوع

إذا كانت للتاريخ الانساني وجهة فهي وجهة أبدية تحيط بالزمن كله غير مقصورة على الانسان منذ ابتداء تاريخه ولا قبل ابتداء ذلك التاريخ. ومثل هذه الوجهة لا ندركها من الالمام بنقطة واحدة في مجرى الزمن، ولا نستطيع أن نحيط بها الى نهاية الزمن، ان كانت له نهاية .

ان نقطة واحدة من الزمن كنقطة واحدة من المكان، لا تدل على شيء في ذاتها ولا تدل على ما حولها، وقد تبدو لنا كأنها بقعة مهملة أو وصمة تستحق أن تزال، كما تبدو النقطة الصغيرة في الصورة الكبيرة، وهي — لو زحزحنا عنها الغطاء قليلا من قبلها ومن بعدها — ترينا من الصورة عينا ناظرة في وجه كائن حي ندرك وجوده، وان كنا لا نراه .

أما غاية الزمن كله — ولا سيما الغاية الأبدية — فنحن لا نحيط بها وان تكشفنا جميع أسرارها، لأننا — في مداركنا المحدودة — لا نحيط بوجود أبدى غير محدود، ولن نرى من الغاية القصوى الا ما اقترب منا ووافق أبصارنا وبصائرنا، ولن نراه على حقيقته الكاملة الوافية، بل قصارانا من الجهد أن نراه كما يتمثل لنا رموزا مترجمة عن الحقيقة، كما تترجم هزات الأثير والهواء بالألوان والأصدا .

انما ندرك وجهة التاريخ بفترة منه بين النقطة الحاضرة والغاية الأبدية :

ندركها بشوط من أشواطه الطويلة يتبدى وينتهي على علم منا، وله بين بدايته ونهايته مسيرة مطروقة نعرف منها معالمها ومراحلها، ونعرف من تلك المعالم والمراحل : هل هي وجهة متتابعة أو شتات من الخطى في كل اتجاه، وإلى غير اتجاه ؟

فلنفرض ولنقدر .

ولنا ، بل علينا ، أن نقرض ونقدر كما تعلمنا من العلم العزيز علينا نحن أبناء القرن العشرين .

لنفرض وجهة التاريخ التى نعقلها والتى تتمناها للنوع الانسانى ، كما تتمناها للانسان الفرد والجماعة من الناس .

لا نستطيع بعقولنا وعواطفنا أن تتمنى للنوع الانسانى غاية أفضل وأطيب من الوحدة العالمية التى يتحقق بها وصف النوع وتمامه .

ولا تستطيع عقولنا وعواطفنا أن تتمنى للانسان الفرد غاية أفضل وأطيب من زيادة الكفاية والمعرفة .

وليست للجماعات المتفرقة غاية أفضل لها وأطيب من أن تتقارب على سنة الانصاف وأن تزول بينها فوارق الظلم والخضوع .

فاذا كنا قد أحسنا التقدير على هذا الفرض الذى تتمناه ونعقله فلعلنا نحسن الملاحظة اذا رجعنا الى حوادث التاريخ من مطلعته ففهمنا أن هذه الوجهة قائمة ، وأن النوع الانسانى يتجه فعلا من التفرق الى التضامن كما يتجه الفرد من الهوان والضياع الى الكرامة والكفاية ، وتتجه الجماعات من التفاوت والتغابن الى التقارب والانصاف ، وقد تتردد فى الاختيار بين هذه الوجهة وبين وجهة أخرى تماثلها ، ولكننا لا نتردد طويلا فى ترجيح هذه الوجهة وأمثالها على القول بالعبث والفوضى فى تاريخ الانسان كله أو القول بنقيض تلك الوجهة فى جميع تلك الأحوال .

(١) وجهة النوع الانسانى

فالنوع الانسانى ينتقل فى تاريخه المعروف من التفرق فى الموقع والمصلحة الى التضامن فى جوانب الأرض وفى مرافق المصلحة العالمية .

ينتقل من القبيلة ، الى الشعب ، الى الدولة ، الى الجامعة الدينية أو العنصرية ، الى التوازن بين مجموعة ومجموعة من الفئات الدولية ، الى هذا الاشتباك المتلاحم في سياسة العالم ومواصلاته وعلاقاته ، الى الوحدة التي أوشكت أن تكون وحدة للكرة الأرضية أمام غيرها من العوالم والأفلاك .

وقد أصبح التضامن العالمي تيارا يطوف بكل جانب من جوانب الكرة الأرضية ولا يقوى على الخروج من نطاقه أقوى الأقوياء من الدول والشعوب ، بل ان أقوى الأقوياء مضطر أن يحمل من أعباء هذا التضامن وجرائره ما ليس يضطر الى حمله من هم أقل منه قوة وأضعف منه علاقة بمسائله ومراميه .

وقد مضى على الكرة الأرضية من مستهل التاريخ ألوف السنين وهي منقسمة الى عالمين منعزلين يجهل أحدهما الآخر ويجهل أنه موجود معه على ظهر الكرة الأرضية ، ثم مضت عوامل الوحدة العالمية في طريقها فانكشف كل من العالمين لصاحبه وقيل عنهما منذ ذلك الحين : انهما عالم جديد وعالم قديم .

ثم مضى ربح من الزمن خيل فيه الى أحد العالمين أنه قادر على الاعتزال بأهله وبلاذه عن الشطر الآخر من الكرة الأرضية ، اشارة للسلامة واجتنابا للمآزق واكتفاء بما عنده من مسائله وشواغله وهي غير قليل ، وافترق ساسة هذا العالم — وهو العالم الجديد — فكان أعلامهم صوتا وأكثرهم أتباعا من ينادى بالعزلة ويوصى بالابتعاد غاية الابتعاد من مشاكل القارة الأوربية وغيرها من القارات في العالم القديم ، وكانت الحرب العالمية الأولى حجة لأنصار العزلة يذعن لها معارضوهم أو يكادون يذعنون مترددين متحيرين ، فاذا بالحرب العالمية الثانية تنقل

المسألة من مجال الرأى والبحث الى مجال لا محل فيه لحكم غير حكم
الضرورة ولا متسع فيه لتعدد البحوث والآراء ، واذا بالعالم الجديد
يشارك فى كل مشكلة من مشاكل القارات التى كان يحسبها من قبل
فضولا لا يعنيه ، فلو أراد أن يتنحى عنها لما استطاع ولو أراد كلا العالمين
أن يعتزل صاحبه لأعياء سبيل الاعتزال .

وقد يكون دليل النكسات أدل على وجهة التاريخ هذه من دليل
الخطوات المطردة فى طريق التضامن والوحدة فاننا لا نزعج اننا نعلم
كيف كانت هذه النكسات جزءا من عوامل السعى الى الوجهة المتتابعة ،
ولكننا نكتفى بأن ننظر الى كل نكسة من هذه النكسات على حدة ثم
ننظر الى حالة العالم الانسانى قبلها وبعدها فنرى على التحقيق أن العالم
الانسانى كان بعد كل نكسة منها أقرب صلة وأدنى الى التضامن مما
كان قبلها بسنوات .

كانت حروب الشرق والغرب على عهد الدولتين الفارسية والرومانية
أبعد شئ أن تكون تمهيدا للتقارب بين أنحاء العالم وأبنائه ، وكذلك
كانت غارات التتار وغارات الصليبيين وغارات المستعمرين : كانت نكبات
ونكسات ، وحاربها من ابتلى بشروورها كما تحارب النكبات والنكسات ،
ولكننا ننظر الى العالم بعد كل نكسة ، أو نكبة منها ، فنرى أنه تقارب
ولم يتباعد ، وانه تهيأ بعدها لنكسة جديدة أكبر منها ليخرج منها كذلك
أقرب صلة وأدنى الى وجهة الوحدة العامة والتضامن الوثيق .

وكانت الصين فى عزلتها العريقة ، فلما سطا عليها الاستعمار خرجت
من عزلتها واجتمعت كلمتها بعد فرقتها ، وكان من عجيب شأنها أنها
أخرجت أمة أخرى من عزلتها المختارة — وهى أمة الولايات المتحدة —
لتقضى فى مسألة الشرق الأقصى سياسة الباب المفتوح لجميع دول

العالم ، بدلا من استبداد كل دولة بحصة من الحصص تستأثر بها وتزود الآخرين عنها .

وكانت الهند أمما لا يجمعها اسم ولا تربط بينها عصبه ، فلما ابتليت بالاستعمار أصبحت أمة واحدة لأنها وجدت نفسها أمام عدو واحد ، وخرجت من غاشية الاستعمار دولتين عالميتين لهما في سياسة الشرق والغرب وزن لا يسقط حسابه من ميزان .

وقد كان عدد الأمم التي استقلت وأخذت مكانها في السياسة العالمية أكثر عددا وأكبر شأنًا بعد كل من الحربين العالميتين مما كان قبلها ، وكانت مهمة الهيئات الدوائية المشتركة بعد الحرب الثانية أهم وأعم من جميع الهيئات التي سبقتها .



(ب) الانسان الفرد

ووجهة التاريخ بالنسبة الى الانسان الفرد أوضح — فيما نرى — من وجهة النوع كله كما تبينت من الانتقال المتتابع من تضامن القبيلة المنعزلة الى تضامن العالم الذى تمتنع فيه العزلة على من يريد لها . فلا شك أن التاريخ ينتقل بالانسان الفرد من حالة مبهمه مهملة الى حالة الشخصية المستقلة بحقوقها وتبعاتها ، المتميزة بكيانها وحرمتها . فمن فرد لا تتميز حياته من حياة أبناء القبيلة الى « شخصية » محدودة المعالم تحاسب بعملها ولا تؤخذ بجريرة غيرها .

وكان الفرد من أفراد القبيلة يقتل بذنب كل فرد من أفرادها ، وبقيت هذه الحياة الضائعة في حياة المجموع الى ما بعد عصر القبيلة البدائية بأجيال طوال أدركت عهد الشرائع المكتوبة في دول الحضارة والسنن الاجتماعية ، فكانت شريعة حمورابى تقضى على الأب الذى قتل بنت

رجل آخر أن يسلم بنته الى ذلك الرجل ليقتلها قصاصا لبنته ،
وتحسبها — من ثم — شيئا مضافا الى أسرتها أو الى أبيها لا تستقل
بحياة خاصة لها أو بحقوق واجبة لحياتها ، وجاءت شرائع الرومان بعد
ذلك على هذه الوتيرة في حقوق الأتباع والفروع ، ثم تقدمت مع تقدم
الزمن حتى أصبح كل فرع من فروع الأسرة أصلا قائما على جذوره
مستقلا بكيانه ، أهلا للحق وأهلا للتبعية في عمله .

وليس للتفاضل بين الانسان والانسان مقياس واحد أصدق من
المقياس الذى نستمد منه وجهة التاريخ بالنسبة للانسان الفرد كما كان
وكما يكون مع تعاقب الأطوار وتتابع الأجيال ، وأوجز ما يقال فى المقياس
الذى نستمد منه وجهة التاريخ أنه المقياس الذى ينبىء عن تكامل
الشخصية الانسانية فى حقوقها وتبعاتها .

فالعلم يعطينا مقياسه الذى نفضل به العالم على الجاهل ، والأخلاق
تعطينا مقياسه الذى نفضل به خلق الصلاح والنفع على خلق السوء
والضرر ، والاجتماع يعطينا مقياسه الذى نفضل به الوجاهة والشرف
على الضعة والخمول ، والمال يعطينا مقياسه الذى نفضل به الملىء المكتفى
بنفسه على العاجز المفتقر الى غيره ، والعبقريّة تعطينا مقياسها الذى
نفضل به الفطنة المبدعة على الذهن العقيم والخاطر الكليل .

وهذه كلها مقاييس صادقة للتفاضل بين الناس فى مواضعها
وموضوعاتها .

ولكنها كلها لا تبلغ فى الدقة ، وفى الصحة ، ما يبلغه المقياس المستمد
من وجهة التاريخ ، وهو مقياس « الشخصية » المسئولة الكاملة :
الشخصية التى تسأل عن أعمالها وتحاسب بتبعاتها .

ليس العالم بأفضل من الجاهل فى كل حالة ، ولكنه أفضل منه فى

حالة واحدة ، هي الحالة التي يكون فيها العالم أقدر منه على النهوض بالتبعة والاستقلال « بالشخصية » في حقوقها وفي واجباتها .
وليس العباقرة والسراة بأفضل من الأغبياء والوضعاء في كل حالة ، ولكنهم أفضل منهم في تلك الحالة بعينها ، وهي القدرة على النهوض بالتبعة .

ولنا أن نقول ما نشاء في فضل الكبير على الصغير ، والسيد على العبد ، والرئيس على الرؤوس ، والرجل الرشيد على الطفل اللاعب ، والعلم المشهور على النكرة المجهول .

لنا أن نقول ما نشاء عن فضل انسان على انسان كيفما كان هذا الانسان أو ذلك الانسان ، ولكننا نخطيء في التفضيل مالم يكن مرجع الفضل الى تلك المزية التي نستمدّها من وجهة التاريخ ، وهي مزية الشخصية الكاملة المسئولة عن تبعاتها ، فانها هي المزية التي لا يدل عليها فضل العلم ولا فضل الأخلاق ولا فضل العبقرية ولا فضل الوجيهة ولا فضل السن ولا فضل الخبرة ، فانها جميعا أفضال تنفصل عن مزية النهوض بالتبعة فلا تغنى شيئا ولا تتم لها قيمة ، فاذا سكت عن كل فضل وكل صفة وقلت عن انسان انه أصلح للنهوض بالتبعة فقد غنيت عن البيان وجمعت الفضائل بأنواعها ودرجاتها في فرد عنوان .

وتلك هي المزية الأولى التي تبرز لنا من متابعة النظر الى وجهة التاريخ : انها انتقال من حالة الكم المهمل والرقم المتكرر الى حالة « الشخصية » المتميزة بالحق والتبعة ، ولعلها المزية التي تعيننا في كل مفاضلة بين مجموعة من الناس وغيرها من المجاميع الانسانية ، وليس مبلغها من الصدق أن تعيننا في أسباب المفاضلة بين انسان وانسان ، فمن قال عن أمة من الأمم انها أوفر نصيبا من « الشخصيات » الحرة التي

تناط بها التبعات فلا حاجة به الى الاسهاب في تسمية الفضائل والصفات .

* * *

ولم تخل هذه الوجهة من نكساتها في العصور المتطاولة بين ثورات الحرية وثورات الطغيان ، وبين دعوات التقدم ودعوات الرجعة والجمود على القديم ، وبين قلاقل الاضطراب في انتظار الاستقرار . ويحسبون من هذه النكسات تلك المذاهب المتأخرة التي تغض من قداسة الحرية الفردية ولا تبالى أن تفرقها في غمار الجماعة ، لاعتبار أصحاب تلك المذاهب أن الحرية الفردية ومصلحة الجماعة طرفان متناقضان .

على أن العبرة بالأعمال لا بالأقوال ، وبالنتيجة المقصودة لا بألفاظ المصطلحات التي تجرى على ألسنة الدعاة . ونتيجة تلك المذاهب — ان صحت مقدماتها — أن تتحرر الشخصية الانسانية من ذل الضنك والفاقة وتتخلص من مهانة التسخير وربقة الاستعباد ، وأن ينال الملايين من الكرامة تلك المنزلة التي كانت في الأزمنة الغابرة حكرا للأحاد المعدودين ، وليست هذه النتيجة مما يناقض وجهة التاريخ في انتقاله بالفرد من الاهمال الى الرعاية والحسبان .

(ج) الطوائف والجماعات

والطوائف الصغيرة لا تعد مجرد مجموعات حسابية من الأفراد لأنها ظواهر اجتماعية ترتبط بتركيب بنية الأمة ، ولكنها على أغلبها وأعمها لا تبرز بوجهة تاريخية خاصة بمعزل عن حياة الأمة التي تحتويها ، الا أن تكون من تلك الطوائف التي تتنازع الغلبة على المجتمع لولاية الحكم أو تأييد ولاته ، كما يحصل فيما سمي حديثا بحرب الطبقات . ويؤخذ من تجارب العصر الحديث أن هذه الطبقات ذات وجهة تاريخية تؤثر

فى مجرى الحوادث ، وانها تميل الى التوازن والتعاون أو الى التقارب والتضامن كلما ارتقى النظام الاجتماعى فى الأمة ، وتمضى مجارية ولا تمضى مدابرة الموحدة العالمية .

وربما حدث فى الأمم المتخلفة أن تنبرى فئة من طلاب الانقلاب لاستئصال كل طبقة فى المجتمع غير الطبقة التى تعتمد عليها فى تقرير سلطانها ، ولكن هذه الطبقة لا تلبث أن تتمخض عن طبقات جديدة تملأ فراغ الطبقات المستأصلة وتؤكد من جديد أن الشخصية الانسانية تستوفى كيانها وان الأمم لا تستغنى عن التعاون بين طوائفها .

* * *

من هذا العرض المجل نرى أن الغرض الذى قدرناه غير بعيد عن الواقع فى وجهة التاريخ بالنسبة الى النوع الانسانى أو الى الانسان الفرد أو الى الجماعة التى تبرز لها مع الزمن وجهة تاريخية ، ويسوغ لنا أن نقول : ان كثيرا من الفروض التى يتقبلها الباحثون العلميون تختلف عند التطبيق العملى اختلافا أبعد من الاختلاف بين الوجهة المفروضة والوجهة الواقعية فى هذه المسألة ، وقد يحق لهذا الفرض عن وجهة التاريخ أن يتلقى من قبول العلماء أكثر مما تلقاه ويتلقاه ، ولا نخالهم يترددون فى قبوله ويسرعون الى الاعتراض عليه لو لم يكن تحقيق تلك الوجهة مصحوبا بالكوارث والشروخ التى امتلأت بها الدنيا فى تاريخها الطويل ولا تزال تمتلىء بها فى تاريخ العصر الحاضر ولا يؤمل أن تنتهى فيما يتوقع من تاريخ المستقبل القريب .

يقولون : أيجوز أن نقول بالحكمة والقصد فى تاريخ العالم مع هذه النقائص والآلام التى يتلى بها الأحياء من كل نوع ولا سيما نوع الانسان ؟ ألا يجوز لنا أن نتردد ونرتاب قبل الذهاب الى القول بالحكمة

والغاية في عالم يتخبط هذا التخبط بين التقدم والتأخر وبين الرجاء والخيبة وبين الثقة والحيرة ؟

نقول : بلى . يجوز اذا استنفدنا كل تفسير معقول لهذه المفارقات ، وجربنا غير هذا الغرض فرجدناه أقرب إلى الفهم والأمل مما فرضناه وقدرناه .
لم لا نقول : ان عوارض النقص والألم ودواعي الحيرة والخيبة هي بعض النكسات التي رأينا أنها تفعل فعل الخطوات المسددة في هذا الطريق ؟
لم لا نقول : ان الوجود الأبدى لا يحكم عليه من نقطة واحدة أو نقط شتى غير متصلة ولا متلاحقة في العصر الواحد ولا في مختلف العصور .

لم لا نقول : ان الكون لا ينحصر في مرضاة المخلوق وأن « الكل » لا يرمى بالنقص لما يقع لا محالة من النقص في الأجزاء .

ان الأمانة العلمية — ولا نقول الأمانة الدينية — تتقاضانا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة وأن نفرغ من أجوبتها اليقينية قبل أن نجزم بالقول الفصل في هذه المسألة الكبرى ، ولعلها أكبر مسائلنا — نحن بنى الانسان — على الاطلاق ؟

وقبل أن نلغى من أذهاننا فكرة الوجهة التاريخية المقصودة من أجل نقائص الكون وشروعه ينبغي أن نتصور الكون الذى يخلو من النقائص والشروع كيف يكون ، وينبغي أن نؤمن بأن الصورة الأخرى أقرب الى الحكمة مما فرضناه وقدرناه .

عالم ليس فيه صغير يكبر ولا ناقص يتم ولا جزء يستوفيه جزء آخر ولا حاضر يأتى بعده مستقبل ولا مجهود يبذل ولا فارق بين موجودين يتسلل من جانبه الشعور بالحاجة والسعى الى تداركها والحيلة في دفعها واصلاحها من حين الى حين ومن مكان الى مكان .

عالم كهذا كيف يكون ؟ وإذا كان كيف يكون أصالح وأكرم لوجود الانسان ؟

أناس يتساوون جميعا في السعادة والرضى ، ويتساوون جميعا في السن والميلاد وفي الصحة والفكر والقوة والأخلاق والجمال .

أناس على هذه المساواة تفرض وجودهم فنفرض أنهم يوجدون هكذا كما توجد المصنوعات في قوالب الصناعة ، ولت هذا الفرض متيسر بغير فرض آخر أصعب منه وأبعد من الامكان وأقرب الى الاستحالة والامتناع .

ذلك الفرض الآخر هو المساواة بين الأماكن والأوقات ، ومن وراء ذلك المساواة بين الأيام والأفلاك والعناصر والأشياء ، ومن وراء ذلك عالم لا شيء فيه لأن الشيء لا يوجد في عالم تمتنع فيه الفروق وتتشابه فيه جميع الموجودات .

ما البديل المفضل ، اذن ، من هذا العالم الذى نحن فيه . ليس ثمة الا بديل واحد ، وهو أن يوجد الناس بطبائع الخير والسعادة كما توجد المعادن والجمادات بخصائصها وتراكيبها .

والناس يوجدون كذلك ، ان أمكن وجودهم ، في عالم لا تتكرر فيه المخلوقات ولا تتعاقب ولا تحس الحاجة الى شيء ولا يحدث لها الاحساس الا كما يحدث الأثر في المادة الصماء .

والناس لا يمكن وجودهم على هذه الصورة في عالم تتميز فيه الأشياء ، لأن الأشياء لا تتميز في عالم يتشابه فيه الزمن والمكان وتتساوى أجزاؤه كما تتساوى أجزاء الفضاء .

هذا هو البديل من العالم كما عهدناه ، فمن ارتضى هذا البديل فله أن ينكر الوجهة في التاريخ وأن يفهم المصادفة كما يشاء ويفهم الحكمة والتدبير كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أن هواه قضية مسلمة واختيار متفق عليه .

٣ - الآلة

قصة الآلة أعجب القصص في تاريخ الانسان ، لأنها القصة التي نستطيع أن نبصر في خلالها عوامل الحضارة من بدائها الى ما انتهت اليه في أيامنا ، وما تنتهي اليه بعد هذه الأيام ، وهي الى جانب ذلك قصة الحكمة الخالدة التي تتجلى لنا من وراء تاريخ الانسان ، ونستطيع أن نلمس عبرتها في أدوار ذلك التاريخ .

الآلة من عمل الانسان أو الانسان من عمل الآلة ؟

من قال ان الآلة من عمل الانسان لم نشعر بغرابة في قوله ، ولكننا كذلك لا نرى أنه قال قولاً يستحق عناء ترديده ، لأنه من تحصيل الحاصل ، ومن تبين ما لا يحتاج الى بيان .

ولكننا نستغرب أن يقال ان الانسان من عمل الآلة ، ولكنها الغرابة التي تتراءى بها كل حقيقة جديدة بالنظر فيها والبحث عنها ، خفية عند النظرة الأولى ، جليلة بعد التأمل واعادة النظر أصدق جلاء .

ليكن رأى العلماء ما يكون في مذهب النشوء والتطور ، وليكن منهم من يقول ان الانسان حيوان من الحيوانات العليا نشأ معها أو تسلسل منها ، أو فليكن منهم من يرفض هذا القول ويقصر التطور على كيان الانسان عضوياً حيوياً أو أدبياً فكرياً كيفما اختار .

ليقل من شاء هذا وليقل من شاء ذاك ، فلا اختلاف بين الفريقين في حقيقة واحدة لا تتوقف على هذا القول أو على ذاك ، وهي أن استخدام الآلة كان من أوله أكبر فارق بين الانسان والحيوان الأعجم ، وان الانسان — لو بقى كالحيوان — عاجزاً عن استخدام الآلة لم تكن له

حضارة ولم تكن له حياة اجتماعية ، أو فردية ، تختلف كثيرا عن حياة الحيوان .

ان الحيوانات في جملتها عاجزة عن استخدام الآلة على أبسط ما تكون في حالتها البدائية ، عاجزة عن استخدامها دفعة واحدة على فترات متقطعة ، وعاجزة عن مواصلة استخدامها من باب أولى .

فليس في وسع الحصان — مثلا — أن يقذف حجرا أو يحمل عصا أو يحرك شيئا بواسطة من الوسائط غير أعضاء جسده .

وقد تستطيع الحيوانات العليا — كالقردة — أن تقذف بالحجر أو تحمل العصا من فروع الشجر ، وربما استطاعت أن تحرك بها شيئا بعيدا عنها اذا شاهدت أمامها من يفعل ذلك فعمدت الى محاكاته وهي لا تدرى ما تفعل ، أو تدريه ولا تبتدئه من عندها عن روية وتفكير .

ولكنها — سواء درت أو لم تدر — عاجزة عن مواصلة الارتفاع بالآلة البسيطة من الحجر أو من فروع الشجر ، لأنها تحتاج الى يديها لتمشى عليها ، ولا تقوى على استخدام الرجلين والاكتفاء بهما في حركة المشى خطوة واحدة اذا هي انتقلت من مكانها .

فاستخدام الآلة وانتصاب قامة الانسان أمران متلازمان ، واستقامة الانسان في وقوفه ومشيه هي الفاصل الواضح بين أطوار الحياتين : أطوار الحياة الانسانية وأطوار الحياة الحيوانية .

وبين انتصاب القامة وصلاح اليدين للعمل المتواصل المتعدد ملازمة ظاهرة في تكوين بنية الانسان ، وتكوين دماغه وارتباط الحركة اليدوية بالحركة الفكرية في أعماله .

ولا يهمننا أن يقال في هذا السياق ان الانسان ارتقى لأنه صنع الآلة أو أنه صنع الآلة لأنه ارتقى ، ف كلا القولين يفيد شيئا واحدا وينتهى

الى نتيجة واحدة ، وهى ارتباط تاريخ الآلة بتاريخ الانسان وحضارته وتفكيره وسائر مزاياه التى ميزته من عامة الأحياء أعلاها وأدناها على السواء . فالانسان حيوان صانع للآلات كما قال بنيامين فرنكلين فى تعريفه الجامع المانع لهذا الحيوان الناطق بما ينطوى عليه معنى النطق من ملكة واستعداد ، ومن قال ان الآلة ميزت الانسان بين أنواع الحيوان، فله أن يقول ان الآلة صنعت الانسان .

قلنا فى كتابنا عن فرنكلين : « ان تعريف فرنكلين للانسان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع فى التعريف . فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه القدرة هى المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون ، وأن بعضهم يولدون بكما أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعى أن يشذ بعض الناس ويتأبد فى الخلاء وينفر من الاجتماع ، ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمى المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة فى طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات..» هذه الرابطة الوثيقة بين قصة الآلة وتاريخ الحضارة الانسانية ، أو تاريخ نوع الانسان فى تطوره وارتقائه ، هى مدار العبرة الخالدة ومظهر الحكمة الالهية فى ذلك التاريخ ، وأدعى الأمور الى اظهار هذه الحكمة أن نذكر أن الآلة قد فرضت على الانسان اضطرابا كما تفرض الأخطار والنكبات ، وأن نذكر من آراء الناس فيها قديما وحديثا كيف

نظر اليها الهداة من الفلاسفة والقديسين ، فانهم لم ينظروا اليها قط نظرة المختار الذى يحمدها ويتمناها لأبناء نوعه ، ولم يكن فى أقوال الفلاسفة والقديسين عنها ما يدل على أنها من تدبير نوع الانسان لنفسه ، وانما هى من تدبير آخر غير تدبير النوع الانسانى ، يساق اليه حيناً على ما يريد وأحياناً على غير ما يريد .

فمنذ القدم جعلت الآلة رمزا للتسخير وفقدان الارادة ، ولحق بها فى هذا الاعتبار من يعمل بالآلة ومن يصنعها . فالعاملون بالآلات مسخرون والذين يصنعونها مسخرون ، وكلهم تجردهم الآلة من انسانيتهم ، وهى فى منشئها مزية الانسان على عامة الأحياء .

ولما تخيل الناس الأرباب على صورة البشر تخيلوا الرب الذى يصنع الآلات دميماً مسوخاً أعرج شائه المنظر يتقبله الأرباب فى علياء « الأوليمب » على مضض ويهمون بطرده من سمائهم أنفة من جلوسه الى جوارهم ، ولم يصبروا عليه الا لحاجتهم اليه .

ذلك هو « هيفستوس » الحداد كما عرف فى ملاحم اليونان الأقدمين ، ويسمى أيضاً « ملسير » الذى عاشت قصته بهذا الاسم فى الآداب الأوربية الى العصور الحديثة ، وقال فيه ملتون ان زيوس رب الأرباب قذف به من السماء : « فظل يهوى من الصباح الى وقت الظهيرة ، ومن الظهيرة الى المساء الندى ، نهار صيف كامل ، هبط بعده عند مغرب الشمس كالنجم المنقض من السمى الى جزيرة بحر ايجيه : لمنوس » . وفى قصة أخرى من قصص « هومر » ان أمه هى التى قذفت به من سمائها بعد مولده ، لأنها استقبحته وعافت منظره فنبذته خجلاً من الظهور به بين الأرباب . وقد هبط به الشعراء المتأخرون من « اوليمب »

الالهة وزعموا أنه يعمل في مخبأ مدفون في الأرض تحت البراكين الثائرة ،
فخلط الرومان بينه وبين الرب « فلكان » رب المواعد والنيران .

ويظهر أن تمثيل هيفستوس على هذه الصورة قديم متواتر بين شعوب
المغرب والمشرق ، ففي الاصحاح الرابع من سفر التكوين : « ان لأمك
اتخذ لنفسه امرأتين : اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة ..
فولدت صلة توبال قين الضارب كل آلة من نحاس وحديد » وهو اسم
مركب من كلمة طورانية وكلمة سامية حيث التقت اللغتان قديما في
وادي النهرين ، ومعنى توبال أعرج ، ومعنى قين حداد ، وتطلق في العربية
أحيانا على العبد المسخر في الصناعة .

قال الأستاذ سليمان البستاني مترجم الياذة هومر في تعليقاته على
النشيد الثامن عشر منها :

« قيل أخذ اليونان عبادته عن المصريين حيث كان يسمى فتالي .
والهة النار عند البلاسجة والطرواد ، ثم الرومان ، تدعى — فستا —
تطرقت اليهم عبادتها من الفرس . ومن الغريب أن يكون هذا التشابه بين
المعبودين ، وأحدهما ذكر والأخرى أنثى . والأغرب من ذلك أن أول
صيقل لجميع المصنوعات الحديدية والنحاسية في التوراة هو توبال قين ،
وتوبال أو طوبال باللغات التترية — ومنها التركية — الأعرج ، وقين
باللغات السامية — ومنها العربية — الحداد ، وكلاهما لقب هيفست ،
مع أن توبال قين كان قبل عهد هوميروس بحسب نص التوراة بنحو
ألفى عام .. » .

واذا كان هذا شأن صناع الآلات ومخترعيها بين الأرباب وأوائل
الأسلاف فلا جرم يهون شأنهم بين البشر ويساويهم أو يقل عنهم من
يعملون بها ويعولون في معيشتهم عليها ، فقد أوشك هذا العمل أن يكون

من لوازم الرق والعبودية أو لوازم الضعة والهوان ، فمن عمل الآلة لنفسه أو عمل بها لغيره فهما عند الأقدمين فى المهانة سواء .

وجاء أرسطو فقسم النوع الانسانى الى طبقتين : طبقة حرة ذات ارادة ، وطبقة مستعبدة لا حرية لها ولا ارادة ، وجعل هذه الطبقة فى حكم الآلات ، لأنها وسيلة لخدمة المسخرين لها بغير اختيارها .

ولما ظهرت آلات البخار والكهرباء وشاعت المكنتات الكبرى التى يديرها المثات من العمال والصناع لم يرتفع شأن العامل والصانع فى نظر المحدثين عما كان عليه فى نظر الأقدمين ، بل هبط كثيرا فى القرن الأول من نشأة الصناعة الكبرى ، لأن الصناع الأولين كانوا ينفردون بأعمالهم أحيانا ويتصرفون بإدارة آلاتهم وأدواتهم ويحتاجون الى الذكاء والحيلة فى اتقان مصنوعاتهم ، ويفوقون غيرهم ممن لا يحذقون الصناعة فى حسن الفهم والملاحظة ، فلما نشأت المكنتات الكبرى وتشابهت أعمال الصناع استغنى الصانع عن الفهم والملاحظة وكاد أن يعتمد على يديه أو على عضلات بدنه فى أداء مهمته المتكررة المتشابهة بغير تنوع أو تفكير ، وصح فيه أنه أصبح فى حكم الآلة التى يديرها ، بل تطورت صناعة المكنتات شيئا فشيئا حتى حلت فيها المفاتيح والأزرار محل الأيدى والعضلات .

ولم يمض غير قليل على انتشار الصناعات التى تدار بالبخار والكهرباء حتى انطوت كلها فى عنوان واحد يحتوى الآلات فى اطوائها ويحتوى معها أصحاب المصانع وأصحاب أموالها وجمهرة العاملين فيها من العاملين بأفكارهم والعاملين بأيديهم ، بل يمتد حتى يحتوى سياسة الدول التى اتسعت فيها ميادين الصناعة الحديثة ودفعتها الى التوسع فى غزو البلدان وفتح الأسواق واحتكار موارد الخامات المصنوعة وحصر

المناطق التى تباع فيها ، والتنازع بينها على السيادة العالمية للاستئثار بتلك الأسواق والمناطق والاستعداد لذلك التنازع بما يستلزمه من سلاح ومكيدة وما يقتضيه من اثاره الفتن وشن الغارات واشعال فيران الحروب ، فأصبحت كلمة « الصناعة الكبرى » عنوانا لجميع هذه الخطط والمطامع ولكل ما يتصل بها من مرافق المال ومساعى السياسة وبواعث الأخلاق والعادات .

ونظر المفكرون الى « الصناعة الكبرى » فى ابان نشأتها وامتدادها نظرتين متعارضتين : فمن كان من بناتها ومؤسسيها والمقيدين بنظامها فقد حسبها من ضرورات التقدم التى تقترن فيها النعمة بالنقمة ويحتمل فيها الضرر الكبير فى سبيل المنفعة التى لاغنى عنها ، ومن كان من المفكرين خلوا من مطالبها وأغراضها بعيدا من قيودها وشباكها فهم عنده محنة من محن الزمن الأخير تربي سيئاتها على حسناتها وتغيب منافعها فى غياهب آثامها وجرائرها ، ووصفها بعضهم بالصناعة الجهنمية وخيل اليه أن « المكنة الضخمة » انما هى « الجقرنوت » الساحقة يركبها إله المال بدلا من إلهها القديم « فشنو » ويجتاح بها كل ما قابله فى طريقه ليستوى عليها معبودا بين قرايينه وضحاياها .

وتقابل فى رأى المفكرين المنكرين عالم الصناعة وعالم الطبيعة ، أو تقابلت عندهم الحياة المصطنعة الملفقة والحياة الفطرية السليمة التى بدا لهم أنها الحياة المثلى وأنها تقيض تلك الحياة المختلقة التى تفسخ النفوس وتفسد ما بين الانسان والانسان من روابط العطف ووشائج الرحم والولاء .

وعلى أثر الهجمة الأولى من هجمات هذا « الجقرنوت » الحديث سرت فى العالم دعوة خفيفة ، أو رفيعة ، كادت تغطى شيئا فشيئا على

ضجيج « المكنة » الصاخبة التى ملتها الأسماع وأعارتها ما أعارته من صفواتها على كره منها ، وكانت تلك الدعوة التى سرت خفيفة تارة ، ورفيعة تارة أخرى ، هى دعوة العودة الى الطبيعة أو دعوة السلام مع الله كما سماها بعض أقطابها الأولين ، وتقاس هذه الدعوة فى الزمان كما تقاس فى المكان فيكشف لنا مدى اتساعها ونشاط الأذهان لقبولها حيثما تنقلت الصناعة الكبرى فى خطواتها ، كأنما تطاردها فى مسيرها على حسب انتشارها وشيوعها واحتدام مشاكلها وأخطارها .

فمن شعراء البحيرة فى انجلترا بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، الى هنرى ثورو Thoreau فى أمريكا الشمالية من أوائل القرن التاسع عشر الى ما بعد منتصفه ، ثم تنتقل الى شرق القارة الأوروبية فى روسيا فينادى بها رسولها تولستوى بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتبلغ الهند فتعود اليها مع الجقرونوت الحديث وترتفع بها عقيدة قديسها وزعيمها مهاتما غاندى ، أكبر رسلها فى العالم الحديث وآخر من حارب « المكنة » الضخمة ليعود بالناس الى آلات البداءة التى يكاد أن يصنعها الصانع بغير حاجة الى معمل ولا أداة .

وتلاقى المصلحون الأخلاقيون والمصلحون الاقتصاديون فى هذه الدعوة الى الطبيعة فنشأت مدرسة « الطبيعيين » وقال المؤمنون بمذهبها ان الأرض ينبوع كل خير ومنبت كل عمل ، وان الأرض تعطى ولا تعقب عطاءها بالشر والعداوة ، ولكن الصناعة التى تنفصل من الأرض تأخذ منه أضعاف ما تعطيه وتسوى بينه وبين الآلة الصماء فى التقدير والتقويم ولكنها لا تعفيه من الألم والضعف اعفاءها للآلة الصماء .

وعلى هذا النمط قضى عقل الانسان قضاءه فى الآلة منذ خرج بها من عداد العجاوات وامتاز بها بين عامة الأحياء وهو لا يدرك بهذه المزية . فلو كان فى مقدور نوع الانسان أن يدبر لنفسه على مدى القرون لما ارتضى الآلة تدييرا له يقدر له منفعه وتناججه قبل عشرات الألوف من السنين ، ويثابر على رضاه مستزيذا من خطاه شاعرا باقترابه فى كل خطوة من هدف مرسوم يريده ويصبر على عثراته لعلمه بما وراءها من نهاية مطلوبة وأمنية مبتغاة .

كلا . ان نوع الانسان كان خليقا أن يحكم على الآلة فى كل مرحلة من مراحل تاريخها كأنها — على أحسن ما تكون — ضرورة مكروهة يلجئ اليها ما هو أكره منها ، ويعتمد عليها لأنه مسوق اليها ، يرميها من يده قبل استخدامها لو استطاع ، ولا يصبر عليها — كما هو شأنه معها — الى أن يلقيها من يده بعد الفراغ منها .

* * *

وجملة القول ان تاريخ الآلة عند الانسان ينتهى الى تاريخ شيء محتقر أو مكروه ، ولكننا اذا نظرنا اليها نظرا يحيط بالنوع الانسانى منذ نشأته الى هذه السنوات الأخيرة وما سيليها من السنوات اللاحقة فقد يسفر هذا النظر عن حقيقتين يقل الخلاف عليهما وهما :

(أولا) ان الآلة صاحبت تقدم الانسان فردا وجماعة وكانت مقياسا لدرجات الحضارة عند أممه عصرا بعد عصر وفى جميع العصور ، فهى على الجملة مقياس الفارق بينه وبين الحيوان الأعجم فى أعلى أنواعه وأقربها اليه .

والحقيقة الثانية أن منافع الآلة غير المقصودة لا تقل عن منافعها المقصودة التى تدخل فى تدبير الفرد أو الجماعة ، فما من آلة قديمة

أو حديثة تنحصر منافعتها في حدود الغاية التي تستخدم لها وتخترع من أجلها ، وما من حكمة انسانية يمكن أن تنحصر فيها تلك المنافع أو يمكن أن تستوعب مقدماتها ونتائجها من النظرة الأولى .

كانت الآلة الأولى صخرة أو فرعاً من فروع الشجر وسيلة لاصابة الصيد أو اتقاء السباع الضارية ، وهذا هي فائدتها التي تدركها حكمة الانسان ويعمل على طلبها .

ولكن الفائدة غير المقصودة من استخدام الصخرة أو فرع الشجرة أكبر جداً من هذه الفائدة التي تكفل له البقاء وحماية النفس بين الأعداء ، لأنها فائدة تتقدم به وتزيد في قدرته وتنمي ملكاته وتنقله من الحيوانية الى الانسانية وتخطو به الخطوة التي يقف عندها الحيوان فلا يتقدم ويتبدى منها الانسان فيبلغ ما هو بالغه اليوم من تمييز وامتياز .

فاستخدام الآلة في رأى العلماء جميعاً هو الذى جعل اليدين فى الانسان أتم وأقدر من اليدين فى ذوات الأربع ، وهو الذى شحذ العلاقة الفكرية والمادية بين الدماغ وسائر أعضاء الجسد وحواسه ، ولا اختلاف بين الباحثين فى علم الانسان على ذلك ، وانما يختلفون فى التقديم والتأخير بين سير الانسان على قدميه منتصب القامة وبين ارتقاء دماغه وابتدائه فى التفكير .

فمن العلماء من يرى أن الانسان ارتقى فكراً ، فهداه التفكير الى استخدام الآلة واكتسب المرونة الجسدية والفكرية من توفيقه بين الأغراض والمجهودات التى يستخدم من أجلها الآلات ، ويرى علماء آخرون أنه استوى قائماً على قدميه واستطاع أن يمشى معتدلاً القامة فتمكن من استخدام الآلة واستعمال اليدين فى حملها وتصريفها وتسديدها الى غاياتها ، وتعلم من ذلك كيف يوفق بين حركات الجسم وهداية الدماغ

فكان هذا سببا لنموه واطراد تقدمه وازدياد قدرته على الفهم والحركة الجسدية في وقت واحد .

فالأستاذ واشبرن Washburn أستاذ علم الانسان (الاثروبولوجى) في جامعة شيكاغو يقول في فصل كتبه سنة ١٩٤١ « ان المعروف عن الأجزاء الأخرى من الهيكل العظمى قليل ، ولكن استطاع أن نعتبر من المقررات البينة الآن أن اعتدال القامة وكل ما يصاحبه مما يساعد عليه في تركيب الجسم هو مرحلة بلغها الانسان قبل وصوله الى هيئته التى استقر عليها » (١) .

وقد لخص الدكتور أشلى مونتاجو طرفى الرأى حول هذه المسألة فى عجالة علمية سماها « الانسان فى أول مليون سنة » قال فيها عند الكلام على نسب الانسان :

« فى افريقية الجنوبية — وبخاصة فى أخريات السنوات العشرين — كشفت هياكل عظمية من متحجرات القرودة سميت قرودة الجنوب وأدعى ما فيها الى الالتفات أنها فى كل شىء قرودية الا فى سعة الجمجمة وعظام الفخذ والساق والقدم فانها شبيهة بالعظام البشرية ، ويتحقق من عظام الفخذ والساق أن قرودة الجنوب كانت تمشى معتدلة أو على نحو من الاعتدال ، ومن ثم نشاهد لأول مرة علامات ثابتة تدل على ترتيب تطور البنية الانسانية . وقد حدث هذا الاعتدال قبل نمو الدماغ الى الحجم الذى يماثل دماغ الانسان ، وكان بعض الثقاق يحسبون أن الترتيب مختلف ، ولكننا الآن نعلم يقينا أن سلف الانسان اعتدلت قامته أولا قبل أن يبلغ مبلغ الانسانية .

(١) صفحة ٤٩٣ من كتاب « ذخيرة علم » الطبعة الرابعة .

« كم عاشت هذه القردة الجنوبية ؟ لا نعلم علم اليقين لأن طبقات الأرض في الاقليم الذى وجدت فيه بقايا تلك القردة لم تدرس دراسة وافية . الا أن الأكثرين من المختصين يرجحون أنها عاشت في العصر المحدث الأخير Pleistocene أى قبل مليون سنة أو نحوها . وربما انقرضت هذه القردة قبل ربع مليون سنة أو أقل من ذلك .. » .

ثم استطرد قائلاً بعد استبعاده أن تكون هذه القردة اسلافا مباشرة للانسان : « هل كان لها نوع من الكلام ؟ لا نعلم . وربما كانت لها مبادئه الأولى . فهل كانت لديها آلات ؟ يجوز انها كانت تستخدم شيئا منها . فان في بعض أقاليم افريقية الجنوبية حصى دقاقا مصفحة كثيرة العدد من المحقق أنها استخدمت كآلة ويجوز أنها من صنع سلف الانسان ، وقد وجد بعضها ومعه أسنان القردة الجنوبية ، ويزعم بعضهم أن تلك القردة الجنوبية استخدمت عظام الربّاح — أحد السعادين — آلات لها ، ودعا الى هذا الظن أن جماجم كثير من هذه السعادين قد وجدت مع بقايا القردة الجنوبية على حالة يفهم منها أنها ضربت على رؤوسها ، فاعتقد الأستاذ رايموند بارت Bart من افريقية الجنوبية أنها من عمل القردة وان هذه كانت تستخدم بعض الآلات أو الأدوات ، وان كان كثير من المختصين يتردد في اعتقاد ذلك ما لم تؤيده أسانيد أخرى » (١) .

وقد خيل الى آحاد من النشويين أن تكرار التجربة التاريخية بوسائل العلم الحديث مستطاعة . فشرعوا في اعداد العدة للاستعانة بالجراحة على تقويم عظام الحيوانات العليا التى تقوى على المشى معتدلة بعد تعديل عظام الحقوين وتثبيتها في مفاصلها على نحو يمكنها من

الحركة ولا يحوجها الى المشى على أربع من حين الى حين ، ويظن
النشويون الذين يشرعون في هذه التجارب أنهم سيعرفون بعض الشيء
على الأقل عن ترتيب نشوء الكلام واستخدام الدماغ والأجهزة الصوتية
في النطق المفيد ، وهم لا يجهلون أن الحيوان الفرد لا يدرك في مدى
حياته القصيرة ما أدركه نوعه في مئات القرون ، ولا يجهلون كذلك أن
الذى يدركه الفرد بعملية جراحية في عظامه لا يورث ولا ينقل
بالوراثة — كله أو بعضه — مالم يتسرب أثره الى الخلايا الناسلة Genes
وصبغياتها Chromosomes ولكنهم يترقبون من تغيير مسلك الحيوان
بعد اقتداره على المشى المعتدل أن يفهموا كيف ابتدأ تحسين الأجهزة
الصوتية وتهيئة اللسان للكلام مع التجاوب بين عمل الدماغ وحركات
الأعضاء ، وقد يحدث في عمر الحيوان الفرد ما يكفى لتعيين الاتجاه ان
لم يكن كافيا لادراك الوجهة أو للاقتراب منها كما حدث في أطوار
التاريخ .

* * *

ونعود فنقول ان النشويين قد يختلفون فيما بينهم وقد يختلفون
بينهم وبين غيرهم ، ولكن الواقع الذى لا خلاف فيه أن الفارق بين
الحيوان والانسان مرتبط بتاريخ استخدامه للآلات ، وانه لولا قدرة
الانسان على صنع الآلات والاستعانة بها على مطالبه لما كانت له مزية
تفرق بينه وبين العجاوات .

ونتقل من الانسان الفرد الى الانسان الاجتماعى فى الشعب أو الأمة.
اننا فى غنى عن تتبع الأدوار التى مرت بها الصناعات لنعلم أنها كانت
فى كل دور من أدوارها مقياسا لحضارة الأمة وعنوانا على المزايا الفكرية
والخلقية التى تميزها على غيرها ، وقد نعلم من عرض حالة الصناعة

في دور واحد من أدوارها أن فوائدها المقصورة لا تستقصى جميع فوائدها ، وان الصناعات التي يتقنها الانسان للحرب لا تلبث أن تدخل في عداد الصناعات التي يقوم عليها السلم ويقوم عليها العمران ، ومن المشكوك فيه أن الصناعة كانت تتقن تطريق الحديد وتليينه على درجات من المرونة والمضاء لو لم تعمل على اتقان السيوف والحراب والدروع . فان آلات الحرث والحفر تصنع بغير حاجة الى الامعان في أساليب التطريق والتلين ، ولكن معالجة الحديد قد أغنت في صناعات السلم والعمران فوق غنائها في صناعات القتال والتدمير .

ولما نشأت صناعات البخار والكهرباء ظهر للآلات أثر جديد لم يكن منه بد لترقية الاجتماع ولم تكن اليه وسيلة بغير « المكنة الضخمة » التي جاء بها الى التاريخ عصر البخار والكهرباء ، وهي تلك « الأداة الجهنمية » أو « تلك الأداة الشيطانية » كما وسمها الحكماء ، بمعزل عن حكمة التاريخ .

لقد كان بناء الصناعة الكبرى على المكنات الضخام مظهرا من مظاهر التوازن في المجتمع بين أصحاب الثروة الزراعية وأصحاب الثروة المعدنية وأصحاب الثروة التجارية ، وكان قيام هذه الصناعة الكبرى دليلا على تكافؤ القوى بين أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، ثم جاءت المكنة الضخمة بقوة جديدة لم تكن تعرف نفسها ولم يكن أحد يعرفها ، ولم يكن لها — لو عرفت — من سبيل الى اسماع صوتها ، فقد جمعت المكنة الضخمة مئات الصانع وألوفهم في صعيد واحد ، وكان اجتماعهم بهذا العدد في رابطة واحدة عدة حية تعتمد عليها الصناعات في انتظامها وتوفير انتاجها . فتم التوازن الاجتماعي حيث اجتمعت هذه القوة للطوائف التي كان من السهل ظلمها ومن

الصعب انصافها ، وهى متفرقة تدير آلاتها المفردة على حدة .

كان لأصحاب الأموال سلطانهم الذى لا يدفع ، سواء كانوا من ذوى الثروة الزراعية أو ذوى الثروة الصناعية أو ذوى الثروة التجارية ، وكانوا ربما تنافسوا بينهم فاضطرتهم المنافسة الى الاعتدال فى مطالب كل فريق منهم ، ولكنهم كانوا اذا استبدوا بسلطانهم يدا واحدة لم يردعهم رادع ولم يعسر عليهم أن يجوروا بمطامعهم على حقوق غيرهم وعلى حدود الشريعة والعرف السديد ، فكان قيام القوة الجديدة — قوة الأيدى العاملة — خيرا عيما يحقق مصالح الطوائف جميعا ويجعل مسألة الانصاف الاجتماعى مسألة عملية لا تتوقف على حسن النية من طلاب الخير العليم .

بيد أنه كان خيرا لم يخلص من الشر فى جميع الحالات ، اذ كانت الصناعة الكبرى قد ظهرت فى بلاد لا توازن فيها بين قوى الثروة المنوعة كما ظهرت فى البلاد التى توازن فيها سلطان أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، فكان ظهور القوة الجديدة سببا من أسباب الطغيان على المجتمع من الأدنى الى الأعلى ، بعد أن كان الخوف كل الخوف من طغيان العلية على من دونهم مالا وعلمًا وقدرة على اسماع الصوت وابلاغ الشكاية واحقاق الحقوق ، وتبين مع شيوع الجهل والتنافر بين طوائف الأمة أن تسخير الجهلاء من المحرومين لعبة سهلة على من يحسن خداعهم واثارة ضغائنهم واستغلال شكائاتهم ، وقد يسخرهم دون أن يشبعهم أو يرفه عنهم لأنه يشبع فيهم شهوات النعمة على من هو أحسن حالا وأكبر جاها وأدنى الى رخاء المعيشة ، وقلما يعينهم أمر الحكومة الحرة لأن فقدان الحرية لا يسلبهم شيئا يحرسون عليه من فكرة أو مبدأ أو متعة روحية .

ولا ريب أن الطغيان من الأدنى بغىض وخيم العاقبة كالطغيان من الأعلى أو أبغض وأوخم في عقباء البعيدة أو القريبة ، ولكنه مع هذا ضرورة لا محيد عنها إذا كان هو الوسيلة التى لا وسيلة سواها لا تقاذ الملايين من مراغة الضيم والاهمال ، وانه ليهون خطبه — على فداحته — إذا بدا من ورائه أمل فى زواله وتلطيف جرائره بعد الاستفادة منه فى كبج طغيان الأقوياء على الضعفاء .

وعند « المكنة الضخمة » تريق العلة التى جلبتها ، ومنها يكون الدواء كما كان منها الداء .

ان المكينات الضخام لا تبقى طويلا على الصورة التى عهدتها الناس منها لأول نشأتها .

لقد كانت لأول نشأتها تحتاج الى مهندس واحد يفهم تركيبها ويحسن ادارتها ويعتمد فى تنظيم عملها واصلاح خللها على الذكاء والدراية العلمية ، وقد يعاونه على ادارتها مساعدون قليلون — بل جد قليلين — يتعلمون مثل تعليمه ويفهمون مثل فهمه ، ولا حاجة بعد المهندس ومساعديه الى معونة غير المعونة اليدوية التى يتساوى فيها الذكاء والغباء ويتكرر فيها العمل الواحد على أيدي المئات والألوف كما تتكرر أعمال الآلات .

انسان واحد وألف آلة ، ولا فرق فى ذلك بين نوع ونوع من المكينات الضخام التى قامت عليها الصناعة الكبرى منذ أواسط القرن التاسع عشر، الى العقود الأولى من القرن العشرين .

ان عهد هذه المكنة ينقضى فى كل أمة من الأمم التى نهجت على سياسة التصنيع وذهبت تتدرج فى تعميم الصناعة الكبرى ، وسيصبح « الآدميون الآلات » نمطا عتيقا لا نفع له بعد شيوع التنويع فى المكينات

وشيوع الأجهزة المختلفة في المكنة الواحدة ، ولن تكون هناك سخرة آلية محصورة في فئة كبيرة من فئات العاملين في الصناعة ، ولن تكون هناك قوة طاغية تعتمد على السخرة الآلية متى زالت هذه السخرة من قرارها .

وكلما انتشرت الصناعة لزم الذكاء في استخدام الآلات وشاع استخدامها في المكتب والنادى والمتجر والبيت والديوان ، ولم يبق عمل الذكاء مقصورا على المكنة الضخمة في المصانع الجماعية ، وأصبحت الصناعة اليدوية المجردة من الخبرة العقلية والدراية الفنية شيئا نادرا يقل من يزاولونه ويرتضونه ويناط أداؤه بذوى القصور الطبيعي من الأغبياء وضعفاء العقول . وقد رأينا فيما تقدم من البحوث عن حالة التعليم في القرن المقبل ان علماء التربية سيحتاجون الى جهد غير قليل لتدبير العمل الذى يوكل الى هؤلاء القاصرين ضنا بالذكاء أن يئذل في أعمال تستغنى عن الذكاء ، وشعورا بالحاجة المزدادة الى درجات من الفطنة تصلح لكل درجة من درجات الانتاج وتسيير الآلات .

ولا يخفى أن تهيئة التعليم الصناعى الذى ينبج الخبراء المطلوبين في كل فرع من فروع الصناعة لا يتأتى بغير مرحلة عامة من التعليم الأولى كفيلة على الأقل بمحو الأمية وتزويد الناشئ المتعلم بقسط من المعرفة يرتفع به عن تلك الآدمية الآلية التى تنساق مغمضة الأعين للدعاة المفررين والطغاة المستبدين .

ويصحب هذا في المجتمع الصناعى المتقدم نظام آخر يمنع التفاوت الواسع بين الطبقات . فان المساهمة في الشركات التى تملك معامل الصناعة الكبرى باب مفتوح لكل من يملك ثمن السهم والسهمين والأسهم القليلة التى لا يعجز عنها أصحاب الموارد المحدودة ممن يعيشون بالمرتببات والأجور .

فالمكنة الضخمة التى تشق المجتمعات وتقطع الصلة بين طبقاتها تعود فتعقد هذه الصلة وتملا الفجوة بين كل طبقة وما يليها ممن هم فوقها ومن هم دونها فى العلم والعمل والذكاء والمعيشة ، ومن آثارها فى مناح كثيرة أنها تقارب بين دواعى الاتصال والتعاون وتباعد بين دواعى القطيعة والبغضاء ، وتتقارب هذه الدواعى اضطرارا كما تتقارب اختيارا بما يناسبها من الآداب والأخلاق . فإذا امتنع التوازن فى المجتمعات التى يسيطر عليها أصحاب الأموال أو يسيطر عليها أصحاب الأعمال اليدوية فلا بد من التوازن فى المجتمعات التى يملك فيها الأوساط سلاحا كسلاح الأغنياء المحتكرين للثروة أو سلاحا كسلاح العمال اليدويين القادرين على تعطيل الأعمال أو على التهديد بالاضراب . إذ يستطيع هؤلاء الأوساط أن يجردوا سلاحا كسلاح أصحاب الأموال لأنهم يحتلون مراكز الادارة الهندسية والاقتصادية ، ويستطيعون أن يجردوا سلاحا كسلاح العمال اليدويين لأنهم يملكون التعطيل ويملكون التهديد بالاضراب ، وليس من اليسير أن يستبد أصحاب الأموال أو يستبد العمال اليدويون متى قامت فى المجتمع طبقة وسطى بين الطبقتين لها صوت مسموع ووسيلة الى اسماع صوتها واثبات حقها ورفع الضغط عنها من أعلاها ومن أدناها ، وأبعد ما يكون المجتمع عن استبداد العلية أو استبداد الجماهير اذا امتدت فيه طبقاته الوسطى امتدادا يتغلغل بها فى الطبقتين ممن هم أعلى منها ومن هم دونها ، ويحاول من يريد التفرقة هنا أو هناك أن يضع الخط الفاصل حيث ينقطع الشبه بين الجانبين فيعييه الفصل الحاسم على وجه من الوجوه .

فتاريخ الانسان الاجتماعى ، أو تاريخ الانسان فى الحضارة ، ملازم

أذن لتاريخ « الآلة » كل الملازمة : تطورها مقياس صادق لتواريخ الحضارات وللغوارق المحمودة — أو غير المحمودة — التي تميز بعضها من بعض . وترتقى الآلة البسيطة الى المكنة الضخمة فيكون ارتقاؤها في المجتمعات المتقدمة مظهرا عاما من مظاهر التوازن بين طوائفها ووسائل نفوذها واقتدارها على تبليغ صوتها وتقرير حقها . فاذا ظهرت الصناعة الكبرى في مجتمع لم يستوف تكوينه الاجتماعي ولم تتوازن فيه القوى والمصالح فهي خليقة أن تتدارك هذا النقص وأن تخلق هذا التوازن مع الزمن وتخلق معه أسباب التعاون بين الطبقات وأسباب التغلب على كل طغيان من احداها على الأخرى .

* * *

ان أثر الآلة في حضارة الانسان الاجتماعي لا يقل عن أثرها في ثقافة الانسان الفرد أو في قياس الفارق بينه وبين الحيوان . ولا يقل عن هذين الأثرين البارزين أثرها في حياته العالمية : حياة النوع الانساني على تباعد أقطاره وتفاوت أقوامه وتنازع القوى بين حكوماته وشعوبه .

فقد ولد العالم بعلاقاته المشتبكة يوم ولدت المطبعة والاذاعة والباخرة والطيارة ، وتقررت مبادئ التضامن العالمي عملا في هذا العصر من عصور الصناعة بعد أن طالت دعوة المصلحين اليه وترددت كلمة « النوع الانساني » بغير معنى أو بمعناها المصطلح عليه في الألسنة والأوراق ، ومهما يقل القائلون في قيمة هذا التضامن الحديث فليس هو اليوم بالحبر على الورق ولا بالصدى الزاهب بين الألسنة والأسماع : ان العالم الانساني اليوم أوسع نطاقا من أن تحكمه أكبر دولة وأوثق اتصالا من أن تهمل فيه أصغر دولة ، وما من كارثة في جزء من أجزائه

تؤمن عاقبتها في أجزائه المترامية ، على ما بينها من تباعد في المكان وتباين في المصالح والأهواء ، ولا يحدث هذا في العالم بغير تضامن « واقعى » بين أجزائه ، كائنا ما كان سببه وكيفما اختلف النظر اليه في دساتير الأخلاق .

فاذا قيل ان هذا التضامن ضرورة غير مقصودة ، لأسباب غير محدودة ، ففى ذلك مصداق للحكمة التى تفوق ارادة الانسان وتسوقه في تاريخه مرحلة بعد مرحلة وهو جاهل بما يساق اليه .

ونعود فنقول ان الانسان لم يصنع الآلة وهو يقصد الى جميع فوائدها وعواقبها ، وانه قد يقصدها سلاح حرب فلا تلبث أن تصير على غير قصد منه دعامة سلام ، وقد صح هذا كثيرا في تاريخ الانسان الفرد وتاريخ الانسان الاجتماعى ، ولكنه أصبح من ذلك في تاريخه العالمى أو تاريخ هذا التضامن العالمى في الزمن الأخير ، فما كانت منافع المواصلات لتقود الانسان الى اتقان الطيران هذا الاتقان لولا فعله في الغارات والحروب ، وما كانت أمانة العلم لتفلح وحدها في شق الذرة وابداع الأقمار الصناعية واطلاق الصواريخ وتركيب سفن الفضاء ، وما كانت خصائص المادة وأسرار العناصر والأجسام لتتكشف للعلماء وتنتقد للمخترعين لو لم يكن منها سلاح ووقاء وخوف من عدو أو عزم على اعتداء ، فليست هذه الروائع العلمية مما يتاح للعلماء وينقاد للمخترعين بغير القناطير المقنطرة من الذهب ، وليس اتفاق القناطير المقنطرة مما تتحملة شركات البيع والشراء أو تتفتح له خزائن الأغنياء ، أو يأذن به ولادة الأمر والنهى اذا انكشف عنه الغطاء .

٤ - خواص المادة

والنظرة « المادية »

النظرة المادية تقيض النظرة المجردة الى الأشياء في اصطلاح الأقدمين والمعاصرين ، سواء كانوا من الفكريين المثاليين أو من الحسين الواقعيين .
وأساس هذه التفرقة قديم عند الأمم التي اشتغلت بالفلسفة والعلم ، مع اختلافها في المزاج والعقيدة ووجهة النظر .

فعند الفيلسوف الهندي القديم أن المادة وهم باطل واننا مطالبون بأن نلغى وجودها ونفرض عدمها اذا أردنا أن ننفذ الى الحقيقة المجردة التي لا تتلبس بالأوهام والأباطيل .

وعند الفيلسوف اليوناني أن المادة كثيفة غليظة ، وأن الفكر في لبابه صاف خالص من شوائب التجسيم والتجسيد ، ولا شك أن الفكرة الجغرافية كان لها عمل كبير في هذه التفرقة من أساسها الأول ، لأنها فرقت بين الكائنات الأرضية والكائنات السماوية ، أو فرقت بين هذه المحسوسات الكثيفة الترايبية وبين الكائنات العليا التي لا يحس منها غير النور الذي ينبعث منها ، وهو بسيط صاف لا تركيب فيه ولا يعتريه الا ريشما يختلط بالأجسام ثم ينفصل عنها فيعود الى الطهارة والنقاء .

فكل ما تحت القمر فهو مادي غليظ عرضة للفساد والانحلال ، ويأتيه الفساد والانحلال من جانب التركيب الذي لا يدوم على حالة واحدة ، ومن فقدانه الدوام يتطرق اليه العطب والفناء .

ولا نذكر هنا فلسفة المصريين الأقدمين فيما يرجع الى النظرة المجردة والنظرة المادية فانهم لم يفصلوا بين النظرتين ولم ينظروا الى الوجود كله

الا على اعتباره وجودا واحدا تمتزج فيه الروح والجسد ولا يلزم من اختلافهما أن ينفصلا عنصرين متناقضين ، فلا تنفرد الروح بالبقاء ولا يتمتع على الجسد أن يبقى ملازما لها أو منفصلا عنها الى حين .

* * *

ثم انقضى عصر الفلسفات القديمة واتخذت التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة مناهج شتى في العصور الوسطى بين الفلاسفة المستقلين والفلاسفة المفسرين لأصحاب الآراء الخالية . فانقسم هؤلاء جميعا الى قسمين متناقضين : قسم الواقعيين وقسم الاسمين ، وأطلق « الواقعيون » على الذين يحصرون الوجود في الأفراد المحسوسة ، وأطلق « الاسميون » على الذين يقولون بوجود النوع مستقلا عن الفرد بكيان غير محسوس . فالواقعيون يقولون بوجود هذه الشجرة وتلك الشجرة وكل شجرة يرونها أو يلمسونها ويحسونها على نحو من الاحساس الجسداني ، ولكنهم يرون أن « الشجر » كلمة تقال لتدل على جنس الأشجار في جملتها واسم لا وجود له في الخارج غير وجود مسمياته المتفرقة .

وعلى تقيض هؤلاء « الاسميون » الذين يقولون بأن « النوع » هو الوجود الحقيقي وأن الأفراد المحسوسة انما هي محاكاة ظاهرية تحاول أن تمثل ذلك الوجود العام على صورة من صور الوجود الخاصة التي تدركها الحواس .

وجاء بعد الواقعيين والاسمين أناس مثلهم في هذه التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة ولكن على أسلوب آخر : هؤلاء هم الحسيون العقليون يقابلهم المثاليون المنطقيون ، فلا وجود عند الحسيين العقلين لتلك الأمثلة العليا والحقائق الغيبية التي يؤمن بها المثاليون المنطقيون ويستدلون عليها ببراهين المنطق وأدلة القياس ، وانما الوجود الحق

للمادة التي يحدها المكان والزمان ويثبتها العيان وما يؤيده من حواس
الانسان .

ثم جاءت المادية الحديثة قبيل القرن العشرين فأنكرت جميع المجردات
ولم تثبت شيئاً غير الأجسام كيفما كانت في تراكيبها التي تدركها الحواس
أو تكشفها أدوات الرصد والتحليل .

وسمى العصر الحديث — بين أسمائه الكثيرة — باسم العصر المادى
أو عصر الماديات على إطلاقها ، وجعلوا يطلقون الماديات على كل شيء
يطلبه الجسد ويستمتع به الحس ولا يتجرد عن « الجسدية » على حال
من الأحوال .

ولقد حسب الكثيرون أن هذه « المادية » خليفة أن تقضى على نظرة
التجريد قضاءها المبرم الذى لا رجعة لها بعده ، وإن الذى بقى من نظرات
التجريد — بعد فلسفة الواقعيين وفلسفة العقليين — وشيك أن يذهب
ذهابه الأخير فى إبان عصر المادة الحديث ، فكلما استغرق الباحث فى
النظرة المادية فهو مبتعد بحكم الضرورة عن نظرات التجريد ، ابتعاد
النقيض من النقيض .

وغير هذا هو الذى حدث ويحدث مع توالى الكشف عن أسرار
المادة وعناصر الأجسام ومآل هذه العناصر فى النهاية ونشأتها قبل أن
تتعدد وتبلغ العشرات .

فلم يعرف الناس نظرة التجريد كما عرفوها فى هذا « الزمن » الغارق
فى ماديته كما يقال .

كان الفيلسوف المادى — والعالم المادى معا — فى منتصف القرن
التاسع عشر يعلن الايمان بالمادة دون غيرها لأنه يحسب أن وجودها هو
الوجود الثابت بغير برهان ، وأنها تملأ عيانه وتصدم يديه وقدميه

ولا تحوجه الى فهم حقيقتها وراء النظر واللمس ووراء صدمة الواقع المقرر بغير جدال ولا امعان في الخيال .

ولكن ما هى تلك « المجردات » التى يتحدث عنها غير الماديين ؟
وهم لا نراه . خيال لا نعقله . فروض لا تبرأ من النقائص وضروب
المحال .

ثم وصف علماء المادة وفلاسفتها هذه المادة التى لا تجريد فيها فاذا
هم يعيدون فيها ما قاله الروحانيون عن المجردات . فما يقوله الماديون عن
سر المادة انما هو وهم لا يرى وخيال لا يعقل ونقائص من الفروض فى
التفسير الواحد ، ودع عنك غيره من التفسيرات .

* * *

كانت مادة الأقدمين معدنا للكثافة والغلظة ، وضدا لمعنى الصفاء
والتجريد ، لأنها من معدن يناقض النور السماوى فى بساطته ولطفه
ونزاهة مكانه ، فأصبح قوامها كله من النور المحض يتساوى أكثفها
وألطفها كما يتساوى أثقلها وأخفها فى استمداد هذا القوام من ينبوعه
الأصيل ، وكلما ثقل وزنها كان هذا الثقل عنوانا لوفرة نصيبها من
النورانية أو من الشعاع المنطلق بلاجثمان .

وكانت مادة المحدثين حقيقة واقعة مأخوذة فى اليدين ، يعدون من
غريب القول أن يسأل السائل هل هى مفهومة أو غير مفهومة ، لأنها أظهر
وأثبت من أن يصل الأمر فيها الى الفهم بالذهن المجرد وهى قائمة أمامنا
بألوانها وأحجامها وأجرامها الصلدة التى تصدم الأكف والأقدام ،
فأصبحت هذه الحقيقة الواقعة المأخوذة باليدين شيئا يدق عن ادراك
العقول ويبلغ من الدقة غاية ما يبلغ الروح المجرد فى خفائه وصفائه ، فكل
هذه الأجسام الكثيفة انما هى ذرات صغار لا تدركها العيون ولا يدركها

العقل الا بالحساب والتقدير ، وكل ما انطوت عليه هذه الذرات انما هي هزات أو جزئيات لا ندرى على التحقيق أيهما تكون ، وقد يفسرون الظاهرة الواحدة بالهزات من ناحية وبالجزئيات من ناحية أخرى ، ويتمون هذه بتلك على نحو يستغربونه من شراح « الروحانيات » والمجردات ، وما اليها من خلائق البديهة والخيال .

وما قصارى الهزات والجزئيات بعد هذا التردد بين التفسيرين ؟ ...
قصاراها أنها حركات فى ظن من الظنون يسمى بالأثير ، لا يعرف بلون ولا طعم ولا مس ولا عدد ولا طول ولا عمق مقيس بغير الحساب والتقدير .

وآل أمر الامتداد كذلك الى الحساب والتقدير ، لأنه جاوز الحس والتصوير ولحق فى النهاية بالغيبات وما شاكلها من فروض البديهة والخيال . ففي الثانية الواحدة يعبر شعاع النور قريبا من ثلثمائة ألف من الكيلو مترات . وكم يعبر اذا انقسمت خفقة الثانية الواحدة الى ألف خفقة ؟ وماذا يكون جزء من ألف جزء من الثانية فى حساب الزمن المعهود . وتضاءل شأن « الامتداد » الذى سميت باسمه المادة فأصبح ادراكه وادراك المعانى الذهنية على حد سواء : لا نهاية للصغر بعد أن كان المظنون أن اللانهاية صفة من صفات السعة الشاسعة من الآفاق والآباد . واذا تركنا اللانهاية فى الصغر أو فى الكبر ووقفنا عند المحدودات فى عالم الأجسام والمعانى فالعجب هنا أعجب من كل أعجوبة روحانية عزت على قرائح المتعمقين فى التفكير والتخمين .

ان الناسلات أو الجنيات Genes التى يتكون منها النوع الانسانى كله توضع فى فئجان صغير يحتوى كل ما فى هذا النوع من القوى الكامنة والخصائص المميزة والموروثات الباقية فى وظائف الأعضاء وفى

الأذهان والطوايا الخفية : يحتوى من جرائم التكوين كل ما توزع من الملكات والأخلاق فى أكثر من ألفى مليون من أبناء الأمم الأحياء يتوارثون ملكاتهم وأخلاقهم من اضعاف هذه الملايين فى مئات القرون ، فماذا بقى من معنى الامتداد القديم ؟ وأين مسافات الفضاء أو مسافات الزمن فى هذه المقاييس والمقادير ؟ وأين يذهب بنا التجريد المفروض وراء هذه الخفايا التى لا تؤخذ باليد ولا بالفكر الا مع التسليم والاعتراف فى النهاية بالعجز والقصور ، واذا كان جزء من ثلاثة آلاف مليون جزء محتواة فى فنجان صغير يحفظ جرثومة الطبائع والأفكار والأعضاء فى انسان عظيم أو صغير فماذا بقى من المعجزات للذين يتحدثون عما وراء الطبيعة وما وراء المادة وما وراء العقل والعيان ؟ وأين هو الفاصل القائم الذى يسمح للمادى الفخور بماديته أن يقول لخصمه : أنا مادى ألمس الحقيقة وأنت خيالى تطير وراء المحال ؟

* * *

زعم فيثاغوراس قبل خمسة وعشرين قرنا أن الوجود كله قوامه من عدد ونغم ، أو أن الوجود كله بعدده ونغمه يقوم على النسب الموسيقية .

ولم يذكر فيثاغوراس شيئا عن الموجودات المعدودة ، فهو يذكر العدد ولا يعنيه أمر المعدودات كأنه يقدم العدد فى الاعتبار ويجعل النسبة الموسيقية بين الأعداد أصلا تتبعه الفروع .

وسمع بهذا رأى الفلسفى كاتب يعرف الكيىاء معرفة الصيدلى الماهر ، ويشغل بالدراسات العلمية الحديثة ولا سيما مذهب النسبية فى شعبتها الخاصة وشعبتها العامة . فما كاد الكاتب الصيدلى يصنف الى ذلك رأى الفلسفى حتى صاح محققا : ما هذا اللغو السخيف ؟

الوجود كله عدد ؟ الوجود كله نسب موسيقية ؟ أما آن للعقل البشرى أن يتحرر من هذا الهراء العقيم الذى أكل عليه الزمان وشرب وضاعت فيه الدهور عبثا بين الجدل والسفسطة ؟

ولم يقنع الكاتب الكيمى بما قال فى ثورة الغضب بل كتب مقالا بهذا المعنى لم يعدل فيه عن وصف الفيلسوف الكبير بالسخف والجهالة . ولقيت صاحبا فقلت له : ان آخر من يحق له أن يرمى الفلسفة العددية بالسخف هو الباحث الذى يعرف الكيمياء معرفتك . ماذا تقول الكيمياء عن أصل المادة بحذافيرها وأصل المعدودات على «تعدد» حسابها . قال : انها من عناصرها المعروفة ؟

قلت : وماذا نعرف من عناصرها ؟ فمضى يسرد التعريفات المعلومة لتركيب النواة وكهاربها بين موجبة وسالبة ومحايدة ، الى آخر ما يقال عنها فى بسائط الكيمياء .

قلت : علام يقوم الاختلاف بين عنصر وعنصر منها ؟

قال : انه بالطبع قائم على عدد النويات والكهارب ؟

قلت : والنويات والكهارب من أين جاءت . أليست هى جميعا من شعاع وتؤول الى شعاع بعد الانحلال ؟ فما هو الشعاع ؟ أليس هو هزات فى الأثير ؟ وما الفرق بين هزات الأثير ان لم يكن فرقا بين عدد ونسبة ؟ وهل فى الأثير شئ معدود غير هذا العدد المفروض ؟

ان عناصر المادة اذن تختلف باختلاف ما فيها من أعداد الهزات فى الأثير ، ونرجع الى الأثير فلا نجد هنالك جسما ولا كائنا شبيها بالأجسام التى تقاس بالوزن أو بالحجم أو بالأطوال والأبعاد ، وكل ما نعرفه اذن اعداد مفروضة لا نعرف معها معدودات موجودة ، فماذا قال فيثاغوراس غير هذا مما يحق لنا اليوم أن نصفه بالسخف والهراء ؟

عدد ، ونسب مقررة بين الأعداد ، يتبع بعضها بعضها ولا يعسر على
الخير بها أن يتبين الموضع الخالي في السلسلة المتلاحقة على حسب
اعدادها وضوابط النسبة بينها .

كل ما نعرفه عن تركيب المادة أنها أعداد مفروضة ومعدودات
مجهولة ، ومن قال بهذا الرأي قبل العلم الحديث بخمسة وعشرين قرنا
لا يستحق منها الوصف بالسخف والهراء ، بل هو حقيق منا بكل اعجاب
واكبار ، وجدير بنا أن نتعلم منه كيف تفكر ونفتح أبواب التفكير أمام
عقولنا ، فان لم نتعلم منه ذلك فلنتعلم على الأقل كيف تتردد في اغلاق
أبواب الفكر وفي حجب العيون بالأيدي حتى لا ترى ما لعلها قادرة على
رؤيته ، لولا هذا الحجاب .

على أن العلم الرياضى قد اضطر العلماء الماديين وغير الماديين أن
يسلموا بقول يشبه رأى فيثاغوراس في العدد بلا معدود ، فلم يقل أحد
منهم عن اقليدس انه مخرف سخيف لأنه يقول عن النقطة الهندسية انها
شئ بغير طول ولا عرض ولا عمق أو ارتفاع ، ثم يقول مع ذلك ان الخط
المستقيم مجموعة من هذا النقط بغير عدد معروف يميز بين الطويل
منه والقصير .

اضطر الماديون وغير الماديين اضطرارا الى تسليم هذا الفرض المجرد ،
وبنوا عليه علوم الهندسة العملية والنظرية ، فهي قائمة على غير أساس ،
ان لم تقم على هذا الأساس .

وزبدة هذه الفروض في العلم الطبيعى أو الفلسفة أو الرياضة أن
الحواس لا تعطينا وصفا للمادة — أو للامتداد نفسه — يغنينا عن النظرة
المجردة التى يدركها العقل ولا تدرك بالابصار والأسماع ، بل ربما
عجز العقل عن ادراكها ولم يستطع أن يذهب فيها مذهباً وراء التسليم .

ومن أقرب النتائج الى موقف العلم الحديث من هذه الفروض المسلمة أن نلغى كل ما وقر في اخلاطنا عن النظر المجرد الى حقائق الوجود ، فليست الكثافة هي الحقيقة كلها وليس الخفاء هو العدم كله ، وليس في المحسوسات على اطلاقها شيء واحد لا ينتهي بنا الى خفاء .

واذا عاب الماديون على الفكريين أنهم يتوارثون أوهام الأقدمين في المسائل الروحية ولا يتخلصون منها على ضوء العلم الحديث ، فمن واجبهم أن يذكروا نصيبهم من هذه الوراثة ومن هذا العجز عن الخلاص من بقايا القرون الخالية ، فما يزال في أذهانهم أثر — بل آثار — من صورة الأرض التي تقابل السماء وتناقضها في الجوهر والبناء ، فلا ثبوت عندهم الا لهذا القرار الذي يصدم القدمين ، ولا معنى عندهم لما بعد الطبيعة ، ولا يجوز عندهم أن تكون الطبيعة نفسها حقيقة وراء الحواس ووراء العقول .

٥ - الإيمان

لم يكن العلماء المفكرون في القرن السابع عشر أفضل تفكيراً من خصومهم الجامدين من رجال الدين في زمانهم أو من عامة الجهلاء المقلدين .

كان الخصمان المتنافران يصلان الى النتيجة الواحدة من المقدمة الواحدة .

اثبات دوران الأرض حول الشمس ينفي وجود الله ويبطل الإيمان به عند هؤلاء وعند هؤلاء ، فهم من الجانبين المتقابلين يفكرون على نسق واحد ، ويرجعون الى قضية واحدة في فهم الكفر والإيمان .

ولم يخطئ العلماء المفكرون هذا الخطأ لأنهم أساءوا فهم العلم وعجزوا عن التفكير القويم ، وانما ساقهم الى الخطأ أنهم خلطوا بين الإيمان وبين رجال الدين ، وخيل اليهم أن رجال الدين هم أصحاب قضية الإيمان وهم المختصون بفهمها وتفسيرها والهداية الى أسرارها ، فاذا بطلت دعواهم بطلت دعوى الإيمان من أساسها ، ولم يبق لأحد حق بعد حقهم في تجديدها واستئنافها .

ولو تبادى العلماء المفكرون كلهم في هذا الخطأ حتى اليوم لصح القول بقضاء العلم على الدين منذ ثلاثة قرون ، وتقرر في الأذهان أن العالم يتعد من الدين كلما ازداد نصيباً من معارف العلم الحديث .

ولكننا اليوم بعد ثلاثة قرون لا نستطيع أن نقول ان العالم أبعد من الدين مما كان عند ظهور طوابع العلم الحديث ، ونستطيع أن نقول على التحقيق : ان نصيبه من العلم الحديث أوفر وأوفى من نصيب العالم في

القرن السابع عشر ، بل من نصيبه عند بدء القرن العشرين .
ما الذى تغير من تفكير علماء أمس وعلماء اليوم ؟
تغير وضع القضية .

تغير أصحاب الدعوى فأصبح لها طرف واحد، يتلقى المدعون فيه والخصوم .
قضية الايمان اليوم هى قضية الوجود وليست قضية الجامدين
أو المتحررين من رجال الدين ، واذا صار الأمر الى قضية الوجود
فالأثبات والنفى فيها مطلوبان من كل موجود يعقل ويبحث عن حقيقة
وجوده ، أيا كان رأى الجامدين أو المتحررين من رجال الدين فى جميع
الأديان .

تغير وضع القضية فتغير فيها موقف الهجوم وموقف الدفاع : من
هجم فيها فانما يهجم على عقله ووجدانه ، ومن دافع فيها فانما يدافع عن
عقله ووجدانه ، ومن ظن أن طائفة من الناس أحق بالهجوم والدفاع فقد
نزل عن حقه فى وجوده وحياته ، وعن حقه فى استطلاع أسرار الوجود
والحياة فيما حوله ، وهو أكبر ما للحى العاقل من حقوق .

فى رسالتنا عن « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » — قلنا :
« ان أسباب الشك منذ نشأة العلوم الحديثة خمسة ليس أقوى منها
وأعظم فعلا فى عقول المفكرين الأوربيين وفى عقول غيرهم ممن نظروا
الى دلالتها مثل نظرتهم وحكموا بها على الأديان مثل حكمهم ، وهذه
الأسباب الخمسة هى :

« أولا » كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ومن
الأجرام السماوية على العموم .

« ثانيا » ظهور القوانين الطبيعية التى سميت بالقوانين المادية أو الآلية .

« ثالثا » مذهب النشوء والارتقاء .

« رابعا » علم المقارنة بين الأديان والعبادات .

« خامسا » مشكلة الشر ، وهى ليست من مشكلات القرن العشرين خاصة ، ولكنها تخصص بالقرن العشرين لما تفاقم فيه من الحروب ... »

كان التقليد الشائع عند المفكرين المنكرين من طراز القرن السابع عشر أن يحيلوا على الدين كل خطأ من أخطاء رجال الدين الجامدين الذين يرفضون كشف العلم وآراء العلماء فى هذه البحوث والنظريات . وكان لهم وجه من الشبهة فى ذلك التقليد الذى نظم العلم بنسبته اليه ، ولكن ما هى الشبهة عندهم على الايمان بالله اذا تحولت القضية من قضية خاصة برجال الدين الجامدين الى قضية عامة للوجود ولكل ما هو موجود .

ما الذى يمنع أن يكون دوران الأرض حول الشمس أدل على الحكمة الالهية لأنها فى موضعها من المنظومة الشمسية قد أصبحت أصلح للحياة من جميع السيارات .

وما الذى يمنع أن تكون النواميس فى الطبيعة أدل على الحكمة الالهية من الفوضى والاختلال ؟

وما الذى يمنع أن يكون التطور آية من آيات الهداية الالهية التى ترتقى بال مخلوقات وتبث فيها عوامل التنوع والارتقاء .

وما الذى يمنع أن يكون التدين اجتهادا يبلغ فيه الانسان ما هو قادر على ادراكه طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل .

وما الذى يمنع أن يكون « الشر » أدل على فضل الحياة والحرية من خلق الناس كما تصنع القوالب وتخرط الحدايد والأخشاب .

ان تلك الكشوف العلمية لا تطوى صفحة الدين الا اذا أسىء وضع

القضية ، وفهم الدين على أنه بضاعة فئة من الناس يروجونها ولا يحفل أحد غيرهم برواجها أو كسادها ، بل عليهم أن يحترسوا منها كما يحترس المشتري من تاجر ماكر يبيعه ما لا يحتاج اليه .

الا أنها اذا وضعت في موضعها وفهمت على أنها قضية الوجود والحياة — فكل ما كشفه العلم وما سيكشفه خليق أن ينشر منها كل يوم صفحة جديدة ويفتح منها كل مرة بابا لم يكن قبل ذلك بمفتوح للباحثين . وقد فهمت تلك الكشوف على هذه الصفة حديثا فلم ينكر الفكر مكان الكرة الأرضية في وسط المنظومة الشمسية ، بل رأى فيها آية من آيات الحكمة الالهية أقرب الى التصديق من زعم الزاعمين أنها مستقرة في مركز الكون ، وأن القائلين بانحرافها عن ذلك المركز يبطلون القول بحكمة النظام في الأرض والسماء وحكمة خلق الانسان في موضعه من ذلك النظام .

لو كانت الأرض ترتج من فزع أبنائها لارتجت فعلا من فزع المتدينين الجامدين يوم سمعوا أنها كرة وأنها تدور ولا تستقر في مكانها من مركز الوجود ، ولكن الكرة الأرضية خرجت من ذلك المركز المزعوم ودارت في مدارها بين السيارات ، فتمت لها في هذا المدار شرائط الحياة واستعدت بذلك لظهور الأحياء عليها واظهار البرهان القوي على الحكمة والقصد ، من حيث لا يظهر للعقل من اثباتها في مركزها القديم .

لم توسطت بمدارها بين أقصى البعد من الشمس وأدنى القرب منها ، وبين أقصى البرد وأقصى الحرارة ؟

ولم توسطت في حجمها بين الضخامة التي تشل حركة الأجسام بوطأة الجاذبية الثقيلة وبين الخفة التي تطلق الموجودات عنها الى الفضاء ولا تمسك حولها بالجو الصالح للحياة ؟

ولم يختلف عليها النور والظلام فتيسرت فيها تراكيب الكيمياء التى لا تتيسر مع اطباق النور أو اطباق الظلام ؟

ليكن تعليل هذه الأحوال على الوجه الذى ترتضيه عقول الباحثين فيها من جوانب النظر المتباينة ، فانما نحن على كل وجه من وجوه التعليل أمام صفحة مفتوحة للبحث فى أسرار الخلق لم يطوها القول بخروج الأرض من مركز الكون المزعوم الى مدارها المتنقل بين السيارات ، وهكذا تبقى القضية التى خيل الى المنكرين فى القرن السادس عشر أنها قضية سقطت فيها الدعوى وبطل فيها الخلاف ، وهكذا مضت عدة قرون ولم يبتعد العقل فى القرن العشرين من الايمان بمقدار نصيبه من المعارف والكشوف ، بل هو أحرى أن يبتعد من الانكار كلما اطلع على كشف جديد من كشوف العلم الحديث ، وأحرى بالعصر الحاضر أن يسمى عصر الشك فى الانكار ، اذا قيل عن العصور القريبة الماضية أنها عصور الشك فى الايمان .

* * *

ولا ندري ماذا تصنع ثلثمائة سنة أخرى بمسألة الايمان والانكار فى نظر العقل والبدية بعد هذه الخطوات التى خطاها الفكر الانسانى منذ القرن السابع عشر الى هذا القرن العشرين ، ولكن المشاهد أن أفكار المعاصرين قد استفادت كثيرا من تحويل المسألة من مسألة جدل وملاحاة بين العلماء وأدعياء الدين المحترفين الى مسألة انسانية يضيرنا أن نهملها ولا ينفعنا أن نكتفى فيها بالتفتيش عن سخافة الجامدين والجهلاء .

ومما استفاده الفكر الانسانى فى القرن العشرين أنه فصل فى مسألة أخرى لا تقل عن هذه المسألة فى قيودها الويلة وفى نتائج الخلاص من اسار تلك القيود ، وتلك هى مسألة القطيعة بين العلم والفلسفة وحسبان

النظر فيما وراء المادة فضولا يوشك أن يخل بكرامة العلماء ويخرج بهم من نطاق العلوم .

فالنظرة المجردة اليوم نظرة اضطرارية لا اختيار فيها للعالم الذى كان يظن أنه فى حل من تركها بل يظن أنه مطالب بالابتعاد عنها ، فليس للعقل العلمى اليوم محيص من النظر المجرد الى أصول الموجودات وهو قائم فى صميم هذه الموجودات المادية ، وليس « ما وراء المادة » فى القرن العشرين عالما سحيقا يوغل فيه بالظن والخيال ، بل هو عالمه الذى يشاهده بالعين وينتهى اليه بالتجربة ويفكر فيه ويتخيله على اضطرار بعد انتهائه بالحس الى غاية مداه ، وقد كان الفرض الرياضى عند علماء التجربة العملية حيلة موقوتة يسمح بها مفضيا عنها فى انتظار الوصول الى الحل المأمول ، وكانت النقطة الهندسية — مثلا — لغزا علميا من ألغاز الرياضة التى تشبه الألعاب التى يقبلها من يقبلها ريشا يصل الى الجد المفيد فى التطبيقات العملية : قل أيها الرياضى الحريص على تعريفاته العزيزة كيفما شئت ان النقطة شئ ليس بشئ وبعد تمتد منه جميع الأبعاد ولا طول له ولا عمق ولا ارتفاع ، فما دمننا نبني ونهندس ونحسب فى عالم الأبعاد والمسافات فلا بأس علينا من فروضك وألغازك فى فراغ الأوهام .

غير أن الرياضى المولع بتعريفاته الأولية يعود اليوم فيسأل علماء التجربة والعمل أن ينتهوا بتجاربهم الى شئ فى الفضاء يختلف فى ادراك العقول والحواس عن النقطة الهندسية فلا يحIRON جوابا ولا يحسبون أنهم أفلتوا قيد شعرة من المادة الى فراغ الأوهام ، كل ما نلمسه ونحسه ونراه ونعقله ان هو الا حركة فى الأثير ، وكل ما نعرفه من الأثير انه فضاء لا ندرى ما الذى يتحرك فيه وما معنى الحركة فيه من هنا أو هناك .

ويضطر الطبيب وعالم الحياة ، كما يضطر الرياضي وعالم الطبيعة ، الى هذه النظرة المجردة حين يشرح مخ الانسان وينتظر نتيجة التشرح فيرى أن جسم « المخ » لا يحتوى الفكر احتواء الآنية المحسوسة كما خطر للكثيرين من الماديين الذين قرنوا بين مادة المخ ومادة التفكير ، فقد يزال جزء من المخ كثير أو قليل ويبقى للعقل كل ما كان فيه من علوم ومعارف وذاكرات وأخيلة وكلمات ومعان ولغات ، وقد يعاب تكوين المخ وصاحبه من فلتات العبقرية والنبوغ ، وقد يصغر المخ حجما ووزنا وقدرته على التفكير أكبر من قدرة المخ الذى يزيد عليه فى حجمه ووزنه ، وقد كان الفيلسوف ديكارت يرجح على سبيل الظن أن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى نقطة الوصل بين الجسد والفكر وملتقى العالمين المتقابلين عالم المادة وعالم الروح ، وكان الفيلسوف يعتقد أنه بلغ غاية التسامح الذى يستطيعه من يفرق بين العالمين ويضطر الى صلة يعقدها بينهما مع هذا التفريق ، فاليوم لو عاد لرأى المفرقين فى التجسيم يسبقونه الى التسليم باختلاف مادة التفكير من مادة الدماغ كله ، بما فيه من غدة صنوبرية ومن أغشية وتلافيف .

ولم تتمحض ، بعد ، بحوث العلم فى اشعاع الدماغ وعلاقة هذا الاشعاع بالتفكير والانفعال ، ولم تجر المقارنة الوافية بين الاشعاع المنبعث من دماغ الانسان والاشعاع المنبعث من دماغ الحيوان فى أحوال الشعور والانفعال ، ولم يظهر للعلماء الباحثين فى هذه الظواهر محور الفارق بين اشعاع المخ الانسانى فى حالة التفكير والتأمل واشعاع المخ الحيوانى فى حالة الاضطراب الجسدانى الذى لا تفكير فيه . ولم تكمل ، بعد ، محاولات التجربة العكسية فى هذه الظواهر الفكرية أو الشعورية، فلم يعرف أحد من الباحثين كيف يستطيع أن يحدث بالاشعاع الذى

يرسله الى الدماغ أثرا كالذى ينشأ فى داخل الدماغ أثناء اشتغاله بالتأمل أو بالروية أو بالأعمال الفنية والعلمية ، وكل أولئك من التجارب اللازمة فى هذه الدراسة الطريفة التى لم تسبق لها سابقة من نوعها قبل القرن العشرين . بيد أننا لا نحتاج الى الانتظار الطويل لنعلم أن العامل المهم فى التفكير شيء غير الحجم والمقدار ، وإن المخ لا تنقص معلوماته ومحفوظاته بنقصان جزء منه يستأصله الجراح فى بضع لحظات ، ولسنا نريد أن نسبق السنوات فضلا عن الأجيال والقرون ، ولكننا نستبعد منذ الآن أن يجيء اليوم الذى يستطيع فيه تكييف المخ بالأشعة المرسله اليه من الخارج ليعرف لغة من اللغات أو قضية من قضايا الفلسفة أو درسا من دروس الكيمياء والجغرافية والرياضة ، أو ليكسب ملكة من ملكات النظم والتصوير والتمثيل وما نحا نحوها من الفنون . وغاية المستطاع — على ما نعتقد — أن ينجح الباحثون فى تسجيل اشعاع المخ بالرسوم الكهربية وإدراك دلالتها على نشاط المخ أو كسله وعلى رجحانه أو نقصه، وربما نجحوا كذلك فى تنشيطه وتنبيه قدرته وحضه على عمله وتمييز ذلك العمل الذى يحض على أدائه . أما أن تنقل الأشعة الى المخ فكرة لم يتدعها ولم يستعد لها بتكوينه وتربيته فليس ذلك بالمستطاع ولا هو مما تنبئنا عنه أوائل البحث كما بدرت لنا حتى الآن .

وأيا ما كان مآل هذه البحوث بعد زمن قريب أو بعيد فليس من الممكن أن نرجع بعمل المخ الى حركة أكثف من مادة الشعاع فى الأثير ، وذلك شوط فى تنزيه الملتقى بين الجسد والفكر لم يحلم به الفيلسوف الذى قنع بالغدة الصنوبرية ملتقى بينهما فى تكوين الدماغ وجعل التفكير أساس البراهين على صدق وجود الانسان ووجود الاله .

ان الشوق الى الايمان من أقوى أشواق النفس الانسانية ، شوق متصل بحب الحياة وحب المعرفة وحب الجمال وحب الكمال ، وحسبنا منه أنه شوق يعيننا على اليأس ويمنحنا الأمل ويجعل للحياة معنى يتصل بالدوام .

وليس المتشككون أضعف الناس حظا من هذا الشوق المتأصل في أعماق النفس البشرية ، فانهم كالعاشق الملتزم المستريب حظه من الحب أعمق من حظ الخلى الذى يسقط الحب من حسابه فلا يعنيه أن يشق ولا أن يشك ولا أن يستريح من قلق يساوره وخواء يشعر به ولا يرتضيه . هؤلاء المتشككون في هذا العصر يحارون بين شك يحيك بضائهم وشوق محتبس لا يجد سبيلا الى الانطلاق ، وفضيلة القرن العشرين في أمر هؤلاء المتشككين أنه فتح أمامهم هذا السبيل وفسح لهم مجال النظر في الغيبات وحقائق الوجود من وراء الحواس والعقول : كان العلم يخجلهم من هذه الغيبات كما يخجلهم من الأوهام التي انقضت زمانها بانقضاء الخرافات بل بانقضاء الفلسفة التي تخوض في ظنون لا تقع تحت الحس ولا تقبلها العقول ، فأصبح العلم أقرب الى هذه الغيبات من المخرفين والمتفلسفين ، وحقت عليه الكلمة من مقدماته التي لا يملك الرجوع عنها اذا ملك الفيلسوف أو صاحب الظن أن يرجع عما يشاء من الفروض والأطانين .

وفضيلة القرن العشرين بعبارة أخرى أن العقل البشرى اذا اشتاق فيه الى الايمان استطاع أن يطلبه ولم يخجل من طلبه ، وأنه يطلبه مع العالم والفيلسوف والمتصوف والمؤمن بدينه ، ولا يطلبه متخاذلا متنازعا يدارى سره من علانيته ويستر جانبا من تفكيره لكيلا يطلع عليه جانب آخر يعارضه أو يزدريه .

ان ثلثمائة سنة في عصر السرعة تصنع المعجزات في عالم المجهول علما وصناعة وايمانا واعتقادا وعلاقات بين الأمم في الدنيا الواسعة وبين آحاد الناس في الأمة الواحدة ، وقد يضل البصر عما سيكون بعد تلك السنين ، ولكننا نتقدم على أمان اذا قصرنا النظر على ما بقى في القرن العشرين من سنيه الأربعين ، لأتينا نبصر مواقع الخطى في هذا الأمد القريب ، ولنلمس طبيعة العقيدة التي تنهياً لمن يبحث عنها وهو لا يهاب النظرة المجردة الى الغيب ولا يخضع لسلطة ترهبه بالزواج والقيود ، وكلما أمعنت به الوحدة العالمية في مناهجها الفكرية والخلقية خلص من قيد ثقيل من قيود العصبية التي تفكك روابط الانسانية وتجعل الدين سدا من سدود الفرقة والبغضاء ، بدلا من الايمان بوجود واحد فوق الأرض وتحت السماء .

* * *

نحن نتقدم على أمان في استطلاعنا للغيب القريب اذا تذكرنا كيف انتهى الزمن بقضية الايمان والانكار من القرن السابع عشر الى القرن العشرين : انه نقلها من خصومة على المراسم والشعائر ودعاوى المتدينين المحترفين ، الى بحث صادق عن حقيقة الحياة وحقيقة الغيب والشهادة بغير خصومة ولا لجاجة بين قوم أصلاء في الدعوى وقوم أصلاء في الانكار ، وليس للباحث الذي يتقدم على هدى هذه الحقيقة من قبله غير جوهر العقيدة الخالصة مبرأة من حواشي المراسم والشعائر والتقاليد ، عالمية غير ذات عصبية ، وبصيرة غير منقاداة لبقية موروثة ولا سلطة ظاهرة أو خفية .

قبلة الايمان في المستقبل تتلاقى مع وجهة النوع الانساني الذي يتقدم الى الوحدة العالمية ووجهة الانسان الفرد الذي يتقدم الى الحرية

والكرامة . ولا حرج على متدين أن يبقى على دينه الموروث ويستصفي منه جوهره المبرأ من غواشي الخرافة ونفايات التقليد ، فإن الأديان تتوحد بالجوهر وتتفرق بتلك الغواشي والنفايات ، ولا مبالاة بالقشور التي تعلق بلباب الدين حيث يقوى ضمير الفرد الحر على التخلص منها وحيث تتمكن عوامل الوحدة الانسانية من التغلب عليها فتبقيها متسامحة أو تنفيها متجافية ، ولا تسمح لها على الحاليين أن تعوقها عن قبلتها.

* * *

وحسب القرن العشرين حصة من الحرية الفكرية أنه أطلق الفكر من عقاله الذي حاكمه لنفسه يديه ، فانه وصل بالعلم الى ما وراء المادة المحسوسة فلم يجد هنالك خرافة من خرافات العجائز ولا أسطورة من أساطير الأولين ، بل وجد الأصل الأصيل لكل موجود مشهود أو غير مشهود ، فاستباح لنفسه أن يبحث ويتطلع ويترك الأبواب التي تطرق للافضاء الى ما وراء المادة والفضاء ، ومنها أبواب الفلسفة وأبواب العقيدة ، وكانت حرите هذه من قيود نفسه أنفع له من كل حرية استفادها من ثورته على رجال الدولة أو رجال الدين ، اذ كانت حرите الاستفادة من ثورته على غيره لا تحميه أن يتعثر في سعيه الى الحقيقة وهو يضع العراقيل يديه أمام خطواته ، ويحسب أنه يصون كرامته بالاحجام عما وراء المادة ووراء التجربة المادية ، فيما استأثر به قبل ذلك دعاة العقيدة وأصحاب الفلسفة المثالية .

ونحسب أن الثمرة الأولى من ثمرات هذه الحرية « الذاتية » قد ظهرت ولم تزل تمنع في الظهور في أواخر القرن الماضي الى منتصف القرن الحاضر ، وبدا من طوالها أن تنمشي العقول في طريق واحد على تعدد الميادين التي تسلكها ، فليس بينها اليوم ذلك التقاطع المقرر منذ

البداءة بين قبة العالم وقبة المتصوف وقبة الفيلسوف ، كل منهم يولى شطرا غير شطر صاحبه ، الى غير لقاء .

وقد ندرك هذا الاتفاق في الغاية من أيسر نظرة الى مذاهب الفلسفة التى نشأت بين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر ، فان المذاهب الجديدة — من واقعية أو مثالية — تمضى على نهج واحد أو على خط واحد في الاعتراف بالمادة والفكرة ، وكل ما تختلف فيه أن تذكر موضع الابتداء وموضع الانتهاء ، ومثلهم في ذلك مثل من يسمى خط السفر فيقول انه خط يمتد من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادى أو يقول انه يمتد من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسي ، وكلاهما يتكلم عن خط واحد لا عن خطين اثنين .

فالبرجمية مذهب ينادى امامه الأكبر — وليام جيمس — بارادة الاعتقاد أو بواجب الاعتقاد ، وهو — على هذا — أجهر الفلاسفة صوتا بتقرير الواقع دون أن يناقض نفسه في الحالتين ، اذ هو ينادى بتقرير الواقع ولا يعتبره نقيضا للفكرة ولا للآراء المثالية ، وانما هو ترجمان الحقيقة الذى يفسرها ويشرحها ويتولى اثباتها وضبط معاييرها ، وفرق بعيد بين من يقول بالواقع المحسوس وينفى ما عداه ومن يقول ان الواقع لا غنى عنه للدلالة على ما عداه .

وننظر الى المذهب المثالي والمذهب الواقعي كما يتمثلان في آراء الفيلسوف برادلى Bradley والفيلسوف صمويل الكسندر Alexander ... فان مذهب برادلى المثالي فحواه ان الوجود الالهى حقيقة لا بد منها تترقى الموجودات المادية اليها ولما تدركها ، ويقابله مذهب الكسندر الواقعي بما فحواه أن الوجود الالهى حقيقة لا بد منها أيضا ولكنها تنتج من ارتقاء المادة شأوا بعد شأو من تفاعل الزمان والمكان .

فهما اذن رأيان لا ينكران الواقع ولا ينكران الحقيقة الالهية
ولا يختلفان فيما هو الأعلى منهما وما هو الأدنى ، ولكنهما يختلفان
بعد ذلك في نقطة الابتداء .

وجدير بالتنويه هنا ان المذاهب الواقعية والمثالية جميعا في القرن
العشرين تعنى أشد العناية بحركة الزمان في الفضاء .. فان هذا الزمان
الذى كان في عرف الأكثرين فرضا رياضيا يقتضيه ترتيب الحوادث قد
أصبح الآن جوهرأ أصيلا للموجودات بعد أن تبين العلماء أن الموجودات
المادية كافة تؤول الى حركة في الأثير ، وهو مرادف عندهم للفضاء ، وهذا
الذى عنيناه حين قلنا في التعليق على مذهب ألكسندر : « لا شك ان
مذهب اينشتين عن الزمان والمكان كان له أثر كبير في وقوع هذا
الخطر في روع الفيلسوف ، ولكن الأثر الأكبر ولا شك يرجع الى مباحث
العلوم الطبيعية في الحرارة والكهرباء ولا سيما المباحث التى قررت أن
ذرات المادة تتحول الى اشعاع ، فاذا كان الاشعاع هو أصل المادة وكان
الاشعاع مجرد حركة فلا جرم يخطر للفيلسوف ان حدوث الحركة في
الفضاء هو أصل المادة في صورتها الأولى ^(١) » .

ومن عجائب الاتفاق في هذه المناحي الفلسفية أن يكون ألكسندر
الواقعى تلميذا في مذهبه عن الزمان لهنرى برجسون أكبر المثاليين من
أعلام الفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
فمذهبه في الزمان شبيه بمذهب برجسون الذى يقول بأن الزمان أصيل
في خلق المادة وأن « التغير » الذى هو قوام الزمان ينشئ الكائنات
وينميها ولا يفنى ماضيه بانقضائه بل يتسع مع الحاضر كما يتسع النهر
في مجراه ويشق طريقه الى المستقبل محتفظا بما كان وبما هو كائن الى

(١) كتاب « الله » للمؤلف .

أن يتجمع كله فيما يكون . ومثل هذه الصورة للزمان لم تكن لتخطر على بال الفلاسفة المحدثين لو لم تمتلئ أذهانهم بفكرة الحركة في الأثير كما تتراءى في سريان شعاع الضوء خلال الفضاء . فان الفيلسوف لا يعدو حدوده حين يقول بأصالة الحركة الزمانية قبل تجسم المادة ، اذا كان العالم — الموكل بالتجارب الحسية — يقول بأن المادة « مستمدة » من شعاع يسرى في فضاء ، وانها حركة مجردة لا يعرف العلم ما هو المتحرك فيها وما هو مصدر الحراك على صورة الضوء أو على صورة الحرارة أو على صورة الكهرباء .

هذا في نطاق البحوث الفلسفية .

أما في نطاق البحوث العلمية فقد أصبح البحث فيما وراء المحسوسات خطوة طبيعية بعد تجريد المادة في الأثير من صبغتها المحسوسة ، فنشأ في أوائل القرن علم حديث يسمى بالسيكولوجية المقارنة Parapsychology يدور البحث فيه على انتقال المشاهدات بغير وساطة الحواس ، ولا يزال هذا العلم معدودا من الخطوات الجريئة بحكم التقاليد التي يطول أمدها بعد أوانها في عادات الكثيرين ، ولكن العلماء الذين باثروا التجربة في هذا العلم الحديث يرون أن الظواهر التي راقبوها لا تقبل التفسير بفرض من الفروض المصطلح عليها وأن المضي في التجربة أجدى وأقرب الى الأمانة العلمية من العدول عنها ، وذلك حسب الحديث من بواكير النجاح .

يقول الأستاذ راين Rhine من جامعة ديوك Duke بالولايات المتحدة : « .. ان بعض الرواد السابقين في هذه المباحث كانوا من علماء الطبيعة النابيين ، كالسير اوليفر لودج والسير ويليام كروكس والسير ويليام باريت ، ثم حدث بين حين وحين أن كان يسهم في تلك المباحث بعض العلماء

المتأزمم وان ظل بعض المتخصصم من علماء الدراسات النفسية بمعزل عنها ، وقد كان بىن أولئك الرواد الأساتذة وىلىام جىمس وجورج هىمانز ووىلىام مكىىوآال ، وكان من ثمرة مباحثهم أن يقام أساس صالآ لاستمرار النظر فى النآوى على البعد Telepathy ، وصآىآ أن المباحث التى أآرىت فى معامل هارفارد وجرونتآن وستانفورد آلال السنىن الآمس والعشرىن الأولى من القرن العشرين لم تعمى طوىلا لآلة المشآعات من آانب المتخصصم . الا أن النتائج التى أسفرت عنها مباحث الرواد كانت مشآعة على الماضى فىها وان لم تقبل على علاتها ، لأنها ساعدت على اقامة معمل آاص لها بعد آلىل . فقد بدئت مباحث علم النفس المقارب فى آامعة دىوك سنة ١٩٣٠ برعاية الأستاذ مكىىوآال ، وأدى استمرار البآ فىها الى تأسيس مركز لها سمى بعد ذلك بمعمل آامعة دىوك للدراسات النفسية المقاربة ، وظهرت فى سنة ١٩٣٤ رسالة مقصورة على هذا الموضوع تلآص نتائج التجارب التى أآرىت آلال السنىوات الثلاث بعنوان (مذكرات ما وراء آص ، وتلاها اصآار مجلة علم النفس المقارب سنة ١٩٣٧ ىشارك فى آآرىرها الأستاذ مكىىوآال..) .

* * *

واستطرد الأستاذ رابن الى اآمال الآآقىقات التى تمت منذ انشاء المجلة الى ما قبل منتصف القرن العشرين ، وأشار الى الشروط التى اتبعت لتوآىى أسلوب البآ وضمآن الاتفاق فى التجربة وامآآان النتائج الموثوق بها أىها ىنسب الى النآوى على البعد Telepathy وأىها ىنسب الى الكشف Clairvoyance وأىها ىنسب الى المصادفة ، فاذا بقيت بعدها نتائج أخرى أمآن أن ىقال انها مما ىثبت وجود الوساطة غير المحسوسة بىن الانسان وما ىدرآه من الأشياء . وىؤآذ من الاحصاءات

أن جانب المصادفة قليل وأن التجارب التى تحتاج الى تفسير غير معهود يزداد ويتعد فى خصائصه عن كل من النجوى على البعد وعن الكشف كما يتعد عن الاشتباه بالتنويم المغناطيسى ، وهذه تجربة من تجارب شتى تدل على سائرها .

قال الأستاذ : « ودلت التجارب على وجود عامل غير مجرد المصادفة ، واقتنع المجربون أنفسهم بأن النتائج لا يمكن تأويلها بسبب من الأسباب المعهودة » .

الى أن قال : « ... ووضعت البطاقات فى منزل آخر على بعد مائة ياردة ، وحاول هيوبرت بيرس الذى كان يومئذ طالبا لعلم اللاهوت أن يميز البطاقات .. فأسفرت التجربة عن سنتين - يمكن أن ينسب الى المصادفة - من ثلثمائة ، أى عشرين فى المائة . وعن ١١٩ مرة أصاب فيها بيرس ، أى ما يقرب من أربعين فى المائة . وهى نسبة لا يمكن أن تعزى الى المصادفة ، اذ كانت مثل هذه المصادفات لا تتفق أكثر من مرة فى كل ترليون ، واحتمال التواطؤ بين الرجلين يدحضه اجراء التجارب بعد ذلك على مشهد منى .. » (١) .

فاذا استمرت التحقيقات على هذه الوتيرة بقية السنين الأربعين من هذا فالمنتظر أن تتم وسائل التأكد من المصادفة وغير المصادفة فى هذه التجارب ، وان يتقرر الامتحان العلمى الذى تعرض عليه مباحث هذا العلم الجديد ، وقد تثبت الوسائل المختارة وجود العوامل غير المحسوسة أو لا تثبتها ولا تنفيها . اذ كان من الواجب أن تفرق بين وسائل الكشف وبين الحقيقة المطلوب كشفها . فان المنظورات والمسموعات كانت ملء

(١) المجلد الجديد للمعرفة العصرية

The New Outline of Modern Knowledge

الفضاء والهواء قبل أن تمسكها المصورة الشمسية وأجهزة الاذاعة .
وليس في وسع العلم أن ينفي « المجردات » مع وجود الأثير مجردا من
جميع صفات المادة ، واقترابه بذلك من حدود المجردات الفكرية
والنفسية .

* * *

ويرى أن الأستاذ راين حرص في كلمته على التنبيه الى قيام الرواد في
مباحث الظواهر النفسية من بين الأقطاب المشتغلين بالعلوم الطبيعية ،
لأن المشهور عن الباحثين في علوم الطبيعة أنهم أشد الباحثين انكارا لما
وراء الطبيعة وما يشتمل عليه من المسائل الغيبية ، خلافا للباحثين في
مسائل علم النفس فانهم أقرب العلماء الى المسائل الروحية وأحراهم أن
ينظروا الى شئون الغيب بشيء من الترخص والسماحة الفكرية .

على أن المشاهد في السنوات الأخيرة أن كفة التردد في شئون الغيب
تتحول من جانب الايمان الى جانب الانكار بين أقطاب العلوم الطبيعية ،
فليس بالنادر بينهم من يستند الى علمه في ترجيح الايمان على الانكار ،
بل لعل هؤلاء العلماء اليوم ينقسمون الى فريقين لا تناقض بينهما في
مسألة العقيدة الغيبية ، اذ يعتقد الاجماع بينهم على أن العلم التجريبي
وصاف غير كشاف ، يجمع الوقائع ويرتبها ولا يتعدى الاحصاء والتقرير
الى كشف المجهول والتعرض له بالنفى والاثبات ، فهم بين مؤمن يرى
في علمه ما يعزز ايمانه ويشجعه عليه ، وبين واقف موقف الحيدة يترك
الدعوى العلمية جانبا كلما عرض لشئون الغيب والعقيدة .

ومن علماء الطبيعة الذين يحق للقارىء أن يعتبرهم مثلا لأصحاب
الايمان المعزز بالعلم الأستاذ كريسي موريسون Cressy Morrison
لأنه كان رئيسا لمجمع العلوم بنيويورك وعضوا دائما من أعضاء مجمع

العلوم البريطانية ، وزميلا في متحف التاريخ الطبيعي وركنا من أركان مجلس البحوث العلمية ، وكتابه الذى سماه « الانسان ليس وحيدا »^(١) فحواه في بضع كلمات ان حقائق الوجود لا تقبل التفسير بغير تقرير وجود الخالق الحكيم .

ويبدأ العلامة كريسى كتابه النفيس ببيان الضعف البالغ في تحليل الحياة على الأرض بمحض المصادفة فيقول في مفتتح الفصل الأول :
« خذ عشرة بنسات كلا منها على حدة وضع عليها أرقاما مسلسلة من واحد الى عشرة ، ثم ضعها في جيبك وهزها هزا شديدا ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من واحد الى عشرة . ان فرصة سحب البنس رقم واحد هى بنسبة واحد الى عشرة ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين هى بنسبة واحد الى مائة ، وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام ١ و٢ و٣ متتالية هى بنسبة واحد الى ألف ، وفرصة سحب ١ و٢ و٣ و٤ متوالية هى بنسبة واحد الى عشرة آلاف وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من واحد الى عشرة هى بنسبة واحد الى عشرة بلايين . والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولا بد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهريّة عديدة ، بحيث يصبح من المحال — حيايا — أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بسجرد المصادفة على أى أرض فى أى وقت . لذلك لابد أن يكون فى الطبيعة نوع من التوجيه السديد ، واذا كان هذا صحيحا فلا بد أن يكون هناك هدف ... وبعض علماء الفلك يقولون لنا ان مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفى

(١) Man does not stand alone وقد ترجمه الى العربية الاستاذ محمود

صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو الى الايمان »

لأحداث مدخفاق هدام هي في نطاق الملايين ، وان مصادفة التصادم نادرة لدرجة وراء الحساب ، ومع ذلك تقول احدى نظريات الفلك انه في وقت ما — ولنقل منذ بليونى سنة مضت — قد مر نجم بالفعل قريبا من شمسنا لدرجة كانت كافية لأن تحدث أمدادا مروعة ، ولأن تقذف في الفضاء تلك الكواكب السيارة التى تبدو لنا هائلة ولكنها ضئيلة الأهمية من الوجهة الفلكية ، ومن بين تلك الكتل التى اقتلعت تلك الحزمة من الكون التى نسميها بالكرة الأرضية ... انها جسم لا أهمية له في نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم جسم نعرفه حتى الآن . ويجب أن تفرض أن الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التى توجد في الشمس لا في أى كوكب آخر . هذه العناصر مقسمة على الكرة الأرضية بنسب مئوية معينة قد أمكن التحقق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلق بالسطح . وقد حولت جملة الكرة الأرضية الى أقسام دائمة وحدد حجمها وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية ، ودورانها على محورها قد حدد بالضبط لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكية ، ويصحب الكرة الأرضية كوكب نسميه بالقمر ، وحركاته محددة ، وسياق تغيراته يتكرر كل ثماني عشرة سنة . ولو أن حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو أو أصغر ، أو لو أن سرعتها كانت مختلفة عما هي عليه لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هي ، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائل في الحياة من كل نوع بما فيها حياة الانسان ، وكان هذا الأثر يبلغ من القوة بحيث ان الكرة الأرضية لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك الى أى درجة ملحوظة لما أمكن وجود الحياة فوقها ، ومن بين كل الكواكب السيارة نجد أن الكرة الأرضية فيما نعلم الآن هي الكوكب الوحيد الذى كانت

صلته بالشمس سببا في جعل نوع حياتنا ممكنا ... أما عطارده فانه بناء على القوانين الفلكية لا يدير الا وجهة واحدة منه نحو الشمس ولا يدور حول محوره الا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس . وبناء على ذلك لابد أن جانبا من عطارده هو أتون صحراوي والجانب الآخر متجمد ، وكثافته وجاذبيته هما من القلة بحيث ان كل آثار للهواء فيه لابد أن تكون قد تسلت ، واذا كان قد بقي فيه أي هواء فلابد أن يكون في شكل رياح هوجاء تجتاح هذا الكوكب من جانب الى آخر . أما كوكب الزهرة فهو لغز من الألغاز به بخار سيك يحل محل الهواء ، وقد ثبت أنه لا يمكن أن يعيش فيه أي كائن حي . وأما المريخ فهو الاستثناء الوحيد ، وقد تقوم فيه حياة كحياتنا سواء في بدايتها أو تكون على شفا الانتهاء ، ولكن الحياة في المريخ لابد أن تعتمد على غازات أخرى غير الأكسجين ، وعلى الخصوص الهيدروجين . اذ يبدو أن هذين قد أقلتا منه ولا يمكن أن توجد مياه في المريخ ، ومعدل درجة الحرارة فيه أقل كثيرا من أن تسمح بنمو النبات كما نعرفه ... وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هما الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار أو في الليل قد يتجمد كل نبات في الأرض . ان الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها اثني عشر ألف درجة (فارنهایت) وكرتنا الأرضية بعيدة عنها الى حد يكفي لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار

الحياة كما عرفناها ، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة لمات كل نبت ومات معه الانسان حرقا أو تجمدا . والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلا في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلا ستة أميال أو أربعين ميلا في الثانية لكان بعدنا عن الشمس أو قربنا منها بحيث يتمتع معه نوع حياتنا ... الخ» (١) .

ثم عرض العلامة كريسي لمشاهدات أخرى مستمدة من سائر العلوم الطبيعية يتعسر تفسيرها بمحض المصادفة غير المقصودة وتوحى الى الذهن صدق الايمان بالخلق والتدبير ، وأولها في علم الحياة تلك الجرثومة الحية التي تنبت بقوة لا وزن لها ولا كثافة ولا امتداد فتغالب الطبيعة وتشق الصخر وتفرض على العناصر أن تنحل لتعيد تركيبها وتحول الماء والحمض الكربوني الى ماء وخشب وتجعل الخلية الحية «البروتبلاسمية» وهي أشبه بنظفة من ضباب قادرة على بث الحياة في كل جسم يتقبلها ، وهي بذلك ذات قدرة أكبر من قدرة النبات والحيوان لم تخلقها الطبيعة لأن قدرتها هذه لا تنبت من غيرها ، ولم يكن في وسع الصخر الذي صهرته النار ولا الماء الذي لا ملح فيه أن يهيء لها أسبابها فما الذي هيا لها هذه الأسباب .

ويضرب الأستاذ أمثلة من علم الحيوان لا تفسرها المصادفة ولا تكفى كلمة الغريزة لتفسيرها لأنها ليست أكثر من كلمة ترمز الى الصورة الواقعة ، ومن ذلك غريزة سمك السلمون الذي يعيش في البحر زمنا

(١) من الترجمة العربية التي سميت باسم (العلم يدعو الى الايمان)
للأستاذ محمود صالح الفلكي عن الكتاب الانجليزي المسمى :

Man does not stand alone

ثم يرجع الى مكانه من النهر الذى خرج منه وينفلت من كل جدول من الماء ينقل اليه غير الجدول الذى ولد فيه ، ومثله ثعبان الماء الذى يخرج من الأنهار عند نضجه ويتجه الى البحر المحيط عند جزائر معلومة يضع ذريته فى شواطئها ثم يموت فتعود هذه الذرية الى مواضع الماء العذب التى نزع منها آبؤها ، ولم يحدث قط أن ثعبانا منها يصاد فى أوربة اذا كان موطنه الأول فى الأمواه الأمريكية أو يصاد فى أمريكا اذا كان موطنه الأول فى أمواه القارة الأوربية .

ويذكر الأستاذ من تلك المشاهدات عوامل الوراثة فى الناسلات والصبغيات ، فان هذه الناسلات والصبغيات التى يتولد منها نوع الانسان كله توضع فى جوزة صغيرة ومنها تنبت جميع الخصائص الموزعة فى الذكور والاناث من جميع بنى الانسان ، فكيف تكمن عوامل الوراثة كلها فى ذلك الحيز الصغير لتحفظ اكل فرد من الناس أخفى ما استدق من صفاته ووظائف حياته وتركيب أعضائه وخلاياه على ما فيها من ودائع لا يدركها الاحصاء ؟

وقد عرض المؤلف لغير ذلك من الأمثلة العلمية التى يفسرها المنكرون بكلمة لا معنى لها كالغريزة أو المصادفة ويفضل عليها المؤمنون تفسير التقصد والحكمة فى تدبير أحوال الوجود ، ويطلبون ممن يرفض هذا التفسير دليلا على رفضه أقوى من الدليل على قبواه ، فلا يسمع منهم دليل .

ولا يخفى أن آراء العلماء والفلاسفة انما هى سند للإيمان الدينى يعززه ولا يخلقه ما لم يكن له قرار فى بديهة الانسان . فهذه البديهة تسعى سعيها وتلمس طريقها فى هذا العصر كما تلمسته فيما غير من عصور التاريخ ، وستعمل ما تستطيعه وتتزود من العلم والفلسفة بما

يصلح لها من زاد تسيغه ، ولم تعقم بديهة التدين ولا يبدو أن العالم اليوم أقل إيماناً مما كان في زمن من الأزمنة الخالية ، ولا أن النفوس تطمئن في زماننا الى شكوك التعطيل التي كانت تقلقها وتحيرها قبل عصر العلم الحديث ، وانما موضع النظر أن المرتابين من الأقدمين كانوا يهجرون ديناً ليدخلوا في دين يتلوه ، وكانوا يرتابون وينتظرون النبوءات لجلاء شكوكهم واستلهاهم عقائدهم . فماذا ينتظر المرتابون في عصر العلم الحديث ؟ هل ينتظرون نبوءة جديدة تأتيهم بدين جديد ؟

قد يكون في المرتابين من أبناء العصر من تخامرهم هذه الفكرة ، فهو في مرد أمره سواء ومن يبحث عن عقيدته على هدى بصيرته وعقله . لأن المهم في مشكلته أن يشعر بالحاجة الى العقيدة وأن يعلم أنها معرفة شريفة لا يمنعها العلم الصحيح ولا يعارضها التفكير السليم . ومن صدقت طويته على هذه النية فهو قريب من معتقده الذي يهتدى اليه ببديهته وتفكيره ، وليس أقرب من الملتقى بين العقائد الالهية اذا خلصت الى جوهرها وصفت من أخلاط الوثنية وقشور التقاليد .

ولا ننسى عمل « الشخصية الانسانية » في الهداية الروحية . فان العقيدة تظل معنى من المعاني يحوم عليه الذهن كما يحوم على حقائق الرياضة والحكمة ما لم تتمثل في « شخصية » محبوبة موقرة تنقلها الى الحياة بما تبعته من الثقة وتوحيه من القداسة التي تقرب السماء من الأرض وتعقد الصلة بين الحياة الأبدية التي لا حدود لها وبين هذا العالم المحدود .

كذلك كانت رسالة الأنبياء ، وكذلك تكون الرسالة من الهداة المصلحين الذين يترسمون آثار الأنبياء في دعواتهم الى الخير والكمال . وسيأتي اليوم القريب الذي يكون فيه العلم معوانا مسيراً لذوى

الرسالات من الدعاة المصلحين : انه يفهم عن خوارق العادات التي
تطلبها الأولون ردحا طويلا من الدهر ليستيقنوا من عالم الغيب ويلمسوا
دلائل القدرة التي لم يلمسوها في عالم الشهادة . فمن هذا العلم يتعلم
الانسان الحديث ان العادات كلها خوارق ، وان المحسوسات جميعا
مغروسة في الغيب المحجوب الذي لا تدركه الأبصار ولا العقول ، وقد
تكشف لنا الفترة الباقية من هذا القرن أن المستقبل أصلح للدين من
الماضي السحيق الذي ظن أوجست كونت أنه أوان الدين وظن أن الدين
ثمرة من ثمرات جهله وضعفه وأنها قد انتهت بانتهاؤه ، فنحن نرى من
الآن أن التدين لا ينتهى عند ابتداء التعقل والدراية ، بل أوضح من
ذلك أمامنا أن المعرفة تبلغ بالعقل الانساني غاية مداه فتطرق له أبواب
الايمان .

٦ - العوالم الأخرى

كان العلماء في أول هذا القرن يشكون في امكان الطيران بجسم أثقل من الهواء ، ومضت سنوات على منتصف القرن والطيارة - من كل وزن - تسبق الصوت ولا تكتفى بما وصلت اليه .

وبعد أن كان السؤال ، هل نرتفع في جو الأرض بجسم أثقل من هوائها ، أصبح السؤال على ألسنة العلماء والمستطلعين ، هل نصل بالطائرة الى أجواء السماء ؟ وهل نصعد بها الى جو القمر وأجواء السيارات الشمسية من ورائه ؟ وهل تقلنا الطائرة يوما ما الى ما وراء شمسنا وسياراتنا في أجواز الفضاء ؟

ان العلماء والمخترعين يخافون كلمة المستحيل بعد ما ثبت من امكان الأمور الكثيرة التي جزموا باستحالتها ثم تحققت بعد ذلك بقليل من السنوات ، ويلوح من جملة الآراء والظنون أن المتنبئين يفضلون التعجل في الجزم بالامكان على التعجل في الجزم بالاستحالة ، وتكاد كلمة « لا مستحيل » أن تعود الى أفواه قادة العلم والاختراع بعد أن لهج بها قادة الحرب والحكم على مذهب نابليون الكبير ، فان خيف اليوم شيء في هذه النبوءات فانما الخوف من التورط في الأمل ، حذرا من كلمة « المستحيل » التي أخلفت الظنون غير مرة في بضع سنوات .

والأمل الغالب في هذه المرحلة من مراحل فن الطيران ان الصعود الى الكواكب ممكن ولكنه لا يزال محفوفا بكثير من الصعوبات ، وان الصعوبات في هذه المرة من جانب الطائرين لا من جانب الآلات الطائرة، فليس من العسير اتقان الآلة التي تصعد الى الأجواء العلوية بين كواكب

السماء ، ولكن العسير أن نضمن حياة الانسان فى جو غير جو الأرض وعلى جرم غير جرمها وبيئة من الأحوال الطبيعية غير بيئتها ، وأن نزود البنية الانسانية بالقوة التى تحتل أعراض التغير الطارىء عليها ، اذا تيسر للمخترعين أن يجهزوا الطائرة بما يعوضها عن ضرورات الحياة فى الأرض الى حين .

والمشكلة الحاضرة فى أمر الطيران هى مشكلة طب الفضاء أو مشكلة « الطاقة الانسانية » فى البيئات المجهولة من الآفاق العلوية ، ومنها ما يتعذر الاحتياط له ولا يدرك أحد كيف يكون الاحتياط له ، وهو مجهول .

فمشكلة الطائرة التى تحمل ركبها الى الآفاق العليا لا تعد الآن من الصعوبات الأساسية أمام المخترعين ، سواء سارت بالدفعات المتعددة كما تسير الصواريخ ، أو سارت بالمحركات المستمرة كما تسير الطائرات المعهودة ، أو سارت بالقوتين مجتمعتين واستخدمت فى جميع الحالات أنواع الوقود ومنه الوقود المستمد من الطاقة الذرية . لأن النظريات العلمية التى تطبق فى هذه الحالات جميعا معروفة مقررة ، ووسائل تنفيذها قابلة للتحسين ، مع استمرار التجربة والمراجعة العلمية . أما الصعوبات الصحية فليست بالهينة ولا بالمفهومة على جلائها ، ومما يحصونه منها فى الوقت الحاضر صعوبة الجو والجاذبية والأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة ، وقذائف الفضاء من الشهب والنيازك والمذنبات .

فالجو الأرضى ينتهى بعد مئات من الأميال فوق سطح الكرة الأرضية ، فاذا خف هذا الضغط فمن الواجب أن يحتاط راكب الطائرة لتغيير الحالة اذا استطاع ، والا تسربت السوائل التى فى جسمه وتمددت

الغازات التي في جسمه وانفجرت الأوعية والشرابين . وليس في السيارات الشمسية سيارة واحدة تشبه الأرض في أحوالها الجوية . فمنها ما ليس له جو على الإطلاق ، ومنها ما له جو كثيف خائق لا يسهل التنفس فيه ، ومنها ما يتجه الى الشمس على الدوام بصفحة واحدة ، مع اختلاف كبير في درجات الحرارة واختلاف أكبر منه في درجات الرطوبة حيث يوجد الماء ، وهو معدوم في أكثر السيارات ، ولا يسمع الكلام — بالبداهة — حيث ينقطع جو الهواء .

وصعوبة الجاذبية مرتبطة بحجم الكوكب الذي يهبط عليه الانسان . فاذا كان حجم الكوكب كبيرا اشتدت الجاذبية وازداد ثقل الجسم وتعذر تحريك الأعضاء وامتنعت كل حركة سهلة على الكرة الأرضية . واذا صغر حجم الكوكب اختل التوازن في جسم المركب على حسب الجاذبية الأرضية ويزداد الاختلال عنفا حيث ينقطع جو الهواء .

وقد يبدو أن صعوبة الأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة أهون من صعوبة الجو والجاذبية ، ولكن بعض العلماء يخشى أن تكون هذه أصعب الصعوبات في رحلة الفضاء وراء الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية ، لأن هذا الغلاف عازل منيع يحمي الأحياء من تأثيرات تلك الأشعة وتأثيرات الشحنة الكهربائية أو المغناطيسية التي تكمن في بعضها . فاذا جاوزت الطائرة غلاف الأرض فان جدرانها المعدنية لا تمنع ركابها أن يصابوا بأضرارها ، لأنها تنفذ في الرصاص طبقة بعد طبقة ، فلا يؤمن أثرها في الأنسجة الحية اذا نفذت اليها ، مع كثرتها وتتابع أمواجها أو ذراتها في كل خطوة .

وربما احتيل على الأشعة بحيلة من حيل الوقاية المانعة اذا نجح العلماء في تحديد خصائصها واهتدوا الى سبل الوقاية الصحية منها ،

ولكن الخطر الذى لا يسهل اتقاؤه هو الخطر الذى لا يعرف موضعه ولا تعرف قوته ولا تعرف الساعة التى يطرأ فيها ، ونعنى به خطر الشهب والنيازك والمذنبات . فانها تتفرق فى أنحاء الفضاء وتندفع على غير انتظار وتصدم الطائرة تارة بجسم صغير وتارة بجسم كبير ، وقوتها تختلف على حسب الحالتين وعلى حسب المادة التى تتكون منها ، وقد تكون أصلب من جدار الطائرة وأسرع من الطائرة وأشد اندفاعا وخطرا فى حالة الاصطدام .

تلك بعض المصاعب التى يواجهها الباحثون فى طب الفضاء ، ولا يقال الآن انه أفلح فى تحقيقها وحصر أضرارها . فأما التغلب عليها وتدير علاجها فلا يدعيه أحد من ثقات هذا العلم ، وهم فى الوقت الحاضر جد قليلين .

نعم ان طب الفضاء قد استفاد معلومات كثيرة من تجارب الصواريخ التى تحمل الحيوانات الى مسافة بعيدة من الجو . الا أننا نذكر « أولا » ان الصواريخ لا تتجاوز نطاق الجاذبية الأرضية ، ونذكر « ثانيا » أن جو الصاروخ شبيه من جميع الوجوه بالجو الذى نعيش فيه على سطح الأرض ، ونذكر « ثالثا » ان الصاروخ يصعد ويهبط فى وقت قصير جدا بالقياس الى الرحلة بين الكواكب ، ونذكر أخيرا أن الحيوانات لا تتأثر بالعوامل النفسية والفكرية كما يتأثر بها الانسان .

ومما يبحث عنه علماء طب الفضاء حالة الجراثيم أو المكروبات فى الآفاق العليا من جو الكرة الأرضية ، فهل تعيش الجراثيم اذا وصلت الى تلك الآفاق ؟ وهل تفعل فعلها المعهود فى الأجسام الحية والأجسام الميتة . لهذا قيل ان علماء طب الفراغ كانوا يترقبون فرصة نادرة بالكشف على جثة الكلبة التى قيل انها صعدت الى الجو على بعض الأقمار

الصناعية ، لأنهم ترقبوا أن يعرفوا منها كيف يكون سريان الفساد في جسم الحيوان بعد مفارقة الحياة على مسافة من سطح الكرة الأرضية ، وأن يعرفوا كيف يدب الفساد من داخل الجسم ومن خارجه بعد توقف عمل الحياة فيه ، وربما ظهر لهم أن وجود الانسان فترة من الوقت في الآفاق العليا كان للشفاء من بعض الأمراض ، وان هناك مناعة من المكروبات أو عاملا من عوامل المقاومة لها في طبقة من طبقات الجو الأرضي يصل اليها الانسان أو يستطيع أن يصنع حوله جوا يحاكيها وهو مقيم في داره أو في مستشفاه .

وعلى الجملة يقال الآن ان طب الفضاء ماض في دور المراقبة والجمع والتسجيل ، وان المعلومات المتفرقة التي جمعها تنتظر المراجعة والمقابلة قبل أن ينتظم منها محصول كاف لاقامة القواعد التي تبنى عليها نتائج النظر والتفكير ، ثم يأتي بعد ذلك ما يمكن أن يعمل وما يلزم أن يعمل ، وليس كله من عمل الأطباء ، بل منه ما يتم على أيدي المخترعين والصناع بتوجيه المختصين من علماء الطبيعة والأطباء وقد يحتاج الأمر الى كسوة مزودة بأجهزة للتنفس وأجهزة لموازنة فعل الجاذبية وفعل الضغط على اختلاف الأبعاد والطبقات ، ولا بد مع هذا من تكوين جو الطائرة على النحو الذي يناسب جميع ركبائها معا ، ويناسب كل راكب منهم على انفراد . لأن كل واحد منهم يستقل بحركات لا يشاركه فيها زملاؤه في الطائرة ولا يشاركونه فيها — من باب أولى — متى وصلوا الى مكان يهبطون عليه .

فمسألة السفر بين الكواكب ليست اذن بالسهولة التي تتخيلها في الوقت الحاضر ، وسواء جاءت الصعوبة من تركيب بنية الانسان أو من تركيب الفضاء والأفلاك فالمتفق عليه أنها صعوبة كثيرة العقبات وأن

عقباتها لم تذلل ولا يرى أنها قريبة التذليل ولو تقدم اختراع المكينات وأدوات الانتقال أضعاف ما انتهى إليه حتى الآن .

وقبل أن تستقر هذه المحاولات على نتيجة مقنعة فيما يمكن تذليله من هذه العقبات — يتساءل المطلعون والمتطلعون : ماذا يرجى من وراء تذليلها ؟ وماذا يجد السائح السماوى فى الكواكب العليا اذا وصل اليها ؟ أئمة حياة ؟ أئمة أحياء عاقلة على نجم من تلك النجوم ؟ أئمة عالم آخر ؟ أئمة مخلوقات سماوية ؟

والظاهر من هذه الأسئلة أنها لا تسلم من احياء اللفظ ولعب الخيال واسترسال الذهن مع تداعى الخواطر والمشابهات .

فالذين يسألون عن « العالم الآخر » شب أذهانهم من هذه الكلمة الى « العالم الآخر » الذى يترقبه المؤمنون فى حياة بعد هذه الحياة ، ويخيل اليهم أنه فى آخر الكون لأنه بعيد من الأرض فى آفاق تشبه « الآخرة » فى أعلى السماوات . فما يدرهم ان آخر الكون لا يكون فى هذه الأرض أو لا يكون على مقربة منها ؟ ومن أين يكون الابتداء والى أين يصير الانتهاء فى هذا الفضاء ، وكله فضاء ... ؟

والذين يتكلمون عن الكواكب كأنها السماء يستخدمون العبارات التى استخدمها الأقدمون يوم كانوا يحسبون أن الأرض فى قرار الكون وكل ما طلع من نجم شارق فهو فوقها فى مكان يعلو عليها ...

ولكننا اذا استخلصنا الألفاظ من هذه الايحاءات فالحياة التى نسأل عنها فى الكواكب الأخرى قد تكون دون الحياة فى الأرض كما تكون أعلى وأكمل منها فى تركيبها ، وقد تكون الأرض سماء عليا بالنسبة اليها ومكانا قصيا على مدى شاسع منها لما يفصل بين الأرض وبينها ، وقد تكون الأرض أصلح منها للحياة ، منفردة بشروطها التى تلائمها .

وليس بالقليل بين المفكرين وعلماء الطبيعة من يرى هذا الرأي الأخير ويعتقد أن شروط الحياة لم تتوافر في سيارة من سيارات المنظومة الشمسية كما توافرت في سيارتنا التي نعيش عليها ، فإذا تجاوزوا المنظومة الشمسية الى ما وراءها فغاية ما يعلمونه عنها ان وجود المنظومات التي تشابهها في آفاق الكون الواسعة غير مستحيل ، ولكنه كذلك غير لازم لزوم اليقين .

ومن المفكرين الذين يرجحون انفراد الأرض بشروط الحياة العلامة كريسى موريسون الذى أجملنا رأيه عن حكمة الحياة في الكلام على الايمان ، ويوافقه على هذا الرأي نخبة من المفكرين وعلماء الطبيعة متدينين وغير متدينين . ونكتفى بسرد أمثلة من الخصائص التي تلائم ظهور الحياة ولم يثبت توافرها على كوكب آخر . فهي كما لخصناها في كتاب عقائد المفكرين عن روبرت كلارك : « وجود الماء الغزير وانحلال الملح الصالح فيه دون الأملاح السامة ووجود النبات الذى يمثل الطعام للأحياء على اليابسة ووجود الكربون وأكسيده الثانى على حالة لا يحوها الجو المحيط بالكوكب ، وقيام هذا الجو على حالة من الكثافة والانجذاب الى الكوكب بحيث لا يكظم ما تحته ولا يرسله شعاعا في الفضاء ، وليس يتحقق ذلك اذا كان الكوكب عظيما كالمشتري وزحل . فان الكربون في هذه الحالة يوجد على شكل غاز الميثان Methane فلا يصلح مصدرا للكربون الذى يلائم المادة الحية ، وليس يتحقق كذلك اذا كان الكوكب صغيرا كعطارد والقمر ، فان ثانى أكسيد الكربون لا يوجد في هذه الحالة . وقد ينعدم الجو على الإطلاق » (١) . وينبغي أن تبدأ الملازمة للحياة من الأدوار الأولى حيث تتكون.

الخلية التي تدخل في بنية الأحياء العليا ، أو كما جاء في كتاب مسيرة الأرض لمؤلفه جورج جامو Jamow اذ يقول : « من النقط الهامة التي ينبغي أن تدخل في الحساب عند كل بحث في طبيعة الحياة والنبات أن الخلية الأولى تتألف مما يسمى بالمحلول الغروي Colloidal Solution أى من مواد عضوية في الماء . وهذه المحلولات الغروية — عضوية أو غير عضوية — مستحلب دقيق جدا من ذرات مشحونة بالكهرباء تتماسك على بعد بفعل تلك الشحنة وتبقى في الماء طويلا . لأن الماء الصرف موصل رديء . فاذا أخذنا محلولاً غروباً من الذهب — مثلاً — وأضفنا إليه بعض الملح حتى تزيد قابلية الماء للتوصيل فقدت الذرات شحنتها وأسرعت الى التلاصق والانضمام ... ويمكننا أن نحدث هذا التلاصق أيضا بضم محلولين كل منهما له شحنة مضادة لشحنة الآخر . أما المحلول الغروي من المواد العضوية فمن خاصته أن خلايا الكربون المركب على ألفة كيماوية مع الماء ، وان نتيجة قيامه في الماء على الأبعاد المطلوبة تحول دون فقدان الشحنة الكهربائية » (١) .

والاستدراك المعقول الذي يرد على الذهن كلما قيل ان الكرة الأرضية انفردت بالحياة ان هذه الكرة بين النجوم والكواكب أقل من ذرة رمل في صحارها الشاسعة ، فكيف تنفرد وحدها بالشروط التي هيأتها لظهور الحياة فيها ؟ ألا يجوز أن تتكرر هذه الشروط في نجم من ملايين النجوم التي نراها بالعين أو بآلات الرصد أو لا نراها على الإطلاق ؟ ألا يجوز أن توجد الحياة بغير شروطها الأرضية ؟ ألا يجوز أن تكون للحياة صور لا تتصورها في كوكبنا الصغير ولا تتوقف على الأحوال التي تخيلها لكل حياة ؟

بلى . ذلك جائز . ولا يمتنع في العقل أن تتقبل الحياة تركيبا آخر غير تركيبها الذي عهدناه في كوكبنا الصغير ، وقد قيل كثيرا ان عنصر السليكون يمكن أن يحل محل الكربون في الكائنات الحية ، وأن عملية الفلورة Fluorination قد تعمل على الأكسدة في توليد الطاقة (١) . وهو رأى لم يجمع عليه المختصون ولا يزال منهم من يستبعد تكون الحيوان الكبير من هذا التركيب . ولكن هذا الفرض يفتح لنا بابا واسعا من أبواب التأمل في شروط نشأة الحياة . فليس المهم أن تتوافر الشروط المادية التي تتقبل تركيب الأجسام الحية ، لأن عنصر السليكون موجود على الأرض كما يوجد عنصر الكربون ، ولم يحدث قط أن عنصر السليكون تولدت منه الطاقة الحية بعملية الفلورة ولو في الحيوانات الصغيرة أو الخلايا البدائية . وإذا كان تشابه العناصر من حيث قبول الحياة لا يؤدي الى تكرار ظهورها في الكوكب الواحد فليس من الضروري عقلا أن يؤدي تشابه الشروط المادية في الكواكب الكثيرة الى تكرار ظهور الحياة على صورة أخرى .

ومع هذا يبقى الباب مفتوحا للظن ولما هو أكبر من الظن العارض اذا عززته مسوغات العلم وقال به أناس من المتخصصين للتحليل الكيى وتركيب الضوء ورصد الأجواء بالخبرة المستفادة من ذلك التحليل والتركيب ، ومن أصحاب التخصص في هذه الدراسات أناس يحتملون وجود الأحياء في أجسام من العناصر المادية ولا يستبعدون وجودها في غير هذه الأجسام ، وآخر ما انتهى اليه من هذه الآراء خبر علمى لم نطلع على تفاصيله يقول كاتبه « ان الآراء التي كانت من قبل وفقا على ملحقات الصحف أيام الآحاد قد أبداهها في الأسبوع الماضى الدكتور

(١) الدنياوات جاراتنا بقلم فيرسوف, Our Neighbour Worlds by Firsoff.

ملفين كلفن Melvin Calvin العالم الكيمى المشهور من جامعة كاليفورنيا المختص بأرصاد تركيب الضوء ، ويؤيد الدكتور كلفن قوله بالمنطق الهادىء تدعّمه ثروة وافرة من المعلومات تجمعت من تجارب المعامل الكيمية ومنها معمله ، ويقدر أستاذ جامعة هارفارد الدكتور هارلو شابلى Harlow Shapley أن فى الكون المعروف نحو مائة مليون سيار شبيهة بالكرة الأرضية فى أحواله لا يقل عمرها عن خمسة بلايين سنة وعليها جو من الأكسجين يتخلله الكربون وتصل بينه وبين أحد النجوم التى تصدر منها الطاقة مسافة شبيهة . ويتدىء كلفن من حيث انتهى شابلى فيقول ان هناك — فيما عدا السيارات الكربونية — نظما أخرى قائمة على العناصر الأخرى كالسليكون والنيتروجين وقد تقوم على غير هذه العناصر المادية Anti - matter ... فاذا اعتبرنا سيارات الكربون فظهور الانسان على الأرض لم يستغرق غير وقت قصير بالقياس الى أعمار تلك السيارات التى تقدر بخمسة بلايين من السنين ، لأنه يبلغ زهاء مليون سنة ، ومن الواضح اذن أننا يحق لنا أن تقدر ظهور الخلايا الحية وما قبل الخلايا الحية فى تلك السيارات ، كما يحق لنا أن تقدر ظهور الحياة عليها فيما بعد الطور الانسانى ، فاذا ذكرنا أن كيانات شتى تعمل على ملايين من السيارات رأينا أن الحياة ظاهرة كونية نافذة وأن حياة الانسان احدى عواملها النافذة» (١) .

نعم . هذا رأى سائغ مشروع ، يحق لنا أن نراه ، ولكن يحق لنا معه أن نشعر بأننا نبتعد ونقترب من مواطن الحياة الكونية فى وقت واحد ، لأننا نستغرب أن توجد الحياة فى سيارات هذا الفضاء وتنقطع الصلة

(١) أخبار العلم فى العدد الصادر يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ من مجلة

بين أبنائها ، فلا يحاول بعضهم أن يدل على مكانه ولا يفلح في الكشف عن مكان غيره . فهل تراهم يجهلون مواطن اخوانهم وشركائهم في هذا الوجود الذى ينفردون فيه بالوعى والشعور على ماينهم من تباعد الآفاق ؟ أو هم يعلمون ولا يملكون وسائل التفاهم والاتصال ؟

يحق لنا كلما نظرنا الى تلك الآفاق نظرة الأستاذ كلفن ومن يرون رايه أن تقدر وجود الأحياء فى طائفة من سياراتها قبل وجودهم على سيارتنا الأرضية ، ولم لا ؟ لم يتمتع وجود الحياة فى زمان قبل زمانها المحدود على هذه الكرة ؟ لم توجد الحياة حيثما وجدت فى زمان واحد ولا يكون بعضها قد وجد قبل عمرها الأرضى بمئات الأعمار المحسوبة بملايين السنين ؟ ولم لا تكون لها قدرة على الاتصال بنا أكبر من قدرتنا نحن على الاتصال بها اذا كانت قد سبقتنا الى الوعى والمعرفة وأدركت من العلم ما لم ندركه فى زماننا ؟ واذا كانت ندا لنا فى عمرها فما بال هذه الحياة لا تنشأ حيث نشأت الا فى آونة واحدة مع اختلاف المنشأ فى السيارات والكواكب والنجوم وهى وراء حدود الاحصاء ؟

كلما أنعمنا النظر فى أمر هذه الحياة الكونية رأينا أنها تبتعد وتقترب وأنها تنجلي من هنا لتغمض من هناك . فمن الشطط فى الأمل أن تتخيل أن البقية الباقية من القرن العشرين حسبنا من أمد لاعداد معدات السفر الى مواطننا الكونيين قبل أن نعرفهم ويعرفونا وقبل أن تتقارب فيما بيننا بلغة التفاهم والمراسلة ، ان كانت هناك لغة كونية لجميع الأحياء . وأدنى من ذلك الى الأمل المشروع أن نختم القرن العشرين وقد وصلنا الى الخبر اليقين عن مواطن الحياة فى هذا العالم وعن شروط الحياة أو الحيوانات المتعددة بين أرجائه الفساح ... بل نكاد نستبعد هذا الأمل ونطمح مع ذلك الى أمل كبير لأنه يزيدنا علما بحياتنا على وجه

الأرض ودراية بالمادة وما تحتويه من أجسام الأحياء .
فمن الآمال التي نكاد نلمسها أن تترقى أدوات الرصد حسا ومعنى.
في بقية القرن العشرين فنهتدى بها الى أسرار الضياء والاشعاع وعلاقة
الذرات المبتوثة في الفضاء بظواهر الكهرباء والمغناطيسية وحقيقة
الجاذبية الأرضية وغير الأرضية ، ومن الجائز جدا أن ننفذ على هدى.
تلك الأرصاد الى ذلك ينبوع الجامع لظواهر الطاقة والقوة ، وان نحول
بعضها الى بعض بوسائل الصناعة في غير كلفة مجهدة تربى على فوائدها
وثمراتها . وان اليوم الذى نستطيع فيه أن نحول الجاذبية الى مغناطيسية
وكهرباء ليضع أيدينا على ينبوع من القوة لا ينفد ولا تعرف له نهاية ،
وقد تغنينا هذه القوة عن استخراج الطاقة من الفحم أو الحجارة أو
النفط أو تيارات الماء أو كوامن الذرات ، فان قوة الجذب بين الأرض
والسما شائعة في كل مكان ، ولعلها هى مصدر الطاقة التى تتولد في
الأرض وما عليها من العناصر المعروفة وما هو صالح لتوليدها من
القوى الكامنة التى نجهلها الآن .

ولعل العلم بسر « الجاذبية » بين الأكوان يهيم لنا الصلة التى
تربطنا بعوالم الحياة المجهولة في سياراتها ... فنرتبط بها على وعى.
وشعور كما نرتبط بها الآن بمادة الأجسام .

ومن الخير ألا تتعجل هذه الكرة الأرضية لقاء العوالم الأخرى قبل أن تتلاقى هي عالما واحدا ، يقطنه نوع واحد : نوع انساني واحد في شرعة الرأى والخلق ، لا في شرعة علماء الأجناس عند تقسيم فصائل الحيوان ..

وهى اليوم عالم متضامن في حكم الواقع ما فى ذلك وراء . ولكن كم بين العالم المتضامن فى الخير والشر وبين العالم المتعاون فى الخير والشر من مسافة واختلاف ؟

هنا مجال واسع لكثير من التشاؤم ، ومجال أوسع منه لكثير من المتشائمين . ففى الدنيا مشكلات لا تحل ومخاوف لا تغلب وعداوات لا تهدأ وغوامض من شئون العيش وشئون الرأى لا تنكشف اليوم على جلاء ، وعلى كل لسان يتحدث بهذه الشئون سؤال لا يسمع له جواب شاف : هل تقع الحرب المحذورة المرتقبة ؟ وهل تبقى من بعدها بقية من نوع الانسان أو بقية من الحضارة الانسانية ؟

ويلوح للناظرين الى الغد أن السنين الأربعين التى بقيت من القرن العشرين أقصر من أن ترفع الستار عن غوامض هذه الشئون . وانها فى الحق لكذلك ، فربما انتهت والعالم الانسانى يزداد تضامنا وينتقل الى التعاون الوثيق فى علاقاته وقضاياه ، وربما انتهت وهو مشتبك فى نضال يقطع العرى بين أوصال هذا التضامن الواقع فلا يعود الى مجراه الا بعد حين ، ان قدر له أن يعود .

لا ندرى على التحقيق أى هاتين العاقبتين كائن فى أوائل القرن

الحادى والعشرين ، فهل ترانا لا ندرى أى العوامل التى تعمل لكنتا العاقبتين أرجح وأقوى فى أيماننا هذه ، وأيها يرجى أن يزداد رجحانا وقوة على مدى الأيام ؟

إذا كان هذا هو مدار السؤال فمن الافراط فى الشك والحذر أن نحجم عن الموازنة بين عوامل الأمل وعوامل القنوط ، لأن هذه العوامل قابلة للموازنة والمقارنة ، وظاهرة فى طبيعتها التى تمضى مع التيار المأمول أو تدبر بذلك التيار وتصده الى الوراء . ومن هذه الموازنة بين العوامل المقبلة والعوامل المدبرة لا يستطيع المتشائم أن يوقن بأنه على صواب ، وقد يستطيع المتفائل أن يطمئن الى مآل الصراع بين دواعى التضامن ودواعى التصدع والانحلال .

فمن المشكلات التى تروعا اليوم مشكلات لم تكن لتظهر ولا لتنذر بالخطر الداهم لو لم يكن بين الأمم رباط من التضامن فى المصالح والعلاقات يضطرها الى المبالاة بالقرب والبعيد من مشكلات الأقوياء والضعفاء .

مشكلة فى افريقية الجنوبية ، أو مشكلة فى الشرق الأوسط ، أو مشكلة فى زاوية من زوايا القارة الآسيوية ، وكلها تحدث اليوم فتبعث القلق والتربص والاستعداد فى محافل الأمم بعد أيام .

وقديما كانت المشكلة فى موقع من هذه المواقع تحدث وتنقضى ولا يعلم بها أحد ولا ينبعث منها القلق اذا علم بها بعيد أو قريب .

فاذا أقمنا الموازنة بين عوامل التفاؤل وعوامل التشاؤم فى هذه المشكلات حق لنا أن تتفائل بها ولا تتشاءم منها ، لأنها من علامات التضامن الواقع الذى يوحد بين الاخطار ويضطر الأمم الى توحيد العزائم لدفع تلك الأخطار واتقاء وقوعها قبل التفاقم والاستفحال .

ان كفة الخير فى هذه المشكلات أرجح من كفة الشر ، وانها لتحسب من البشائر بتذليل المصاعب ولا تحسب من العقبات التى لاتنقاد للتذليل .
على أن العالم الانسانى فيه كثير من المشكلات المندرة بالخطر غير تلك المشكلات .

فيه مشكلات النزاع بين الأوطان ، وفيه مشكلات النزاع بين المشرق والمغرب ، وفيه مشكلات النزاع بين الميسورين والمحرومين ، وكلها من المشكلات التى تتشعب بين الأمم وتتغلغل بين طوائف الأمة الواحدة ، وتأبى للعالم فى عصرنا هذا أن يتعاون ويتوحد ، وقد تأبى عليه أحيانا أن يرغب فى التعاون والاتحاد .

فأين هى عوامل الأمل وعوامل القنوط فى مشتبك هذه الأخطار ؟
لا ندرى ما مصيرها ؟ فهل ترانا لا ندرى عند الموازنة بينها وبين عوامل التضامن العالمى أيها أقوى وأيها يمضى فى اتجاه الزمن ، وأيها يحسب من بقايا الأمس التى تسرع أو تبطىء الى الزوال .
ان التضامن العالمى أقوى منها جميعا وأحدث منها فى أسبابه على الأقل ، وأدنى — من ثم — أن يكون له الغد المرجو ولا يلحق ببقايا الأمس التى أخذت فى الزوال .

ان مشكلة النزاع بين الأوطان لمن أخطر المشكلات على تضامن العالم فيما مضى وفى العهد الذى نحن فيه .

ولكنه خطر يتغير ويسرع فى التغير ، ويأتى التغير فيه من جانب الأقوياء الطامعين ومن جانب الضعفاء المطموح فيهم ، ومن جانب المحايدى الذين تقف بهم علاقات السياسة أحيانا فى وسط الطريق لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

فالدولة القوية التى كانت قبل مائة عام تطمع فى وطن ضعيف لم

يكن يمنعها مانع أن تنقض عليه وأن تقهره وتضطره الى الخضوع لحكمها ما دامت تريد البقاء فيه ، ولم يكن من العسير عليها اذا تنافس الأقوياء من نظائرها أن تتفاهم على التقاسم وتبادل السكوت والاعضاء . أما اليوم فالدولة القوية التي تطمع هذا الطمع تجد الموانع من داخلها ومما حولها ومن نظرائها ومن الضعيف ومن يشبهه في حالته من غير الأقوياء . يمنحها في داخلها فريق من أبنائها يزهد في العدوان على الوطن الضعيف لأنه لا يستفيد منه ، ان لم يزهد فيه ايماناً بالحق والانصاف . ويمنعها مما حولها ومن نظرائها انهم يخسرون باختكارها الحكم في غير وطنها ولا يتعوضون من هذه الخسارة شيئاً تمنحهم اياه وتملك ان تمنعه عنهم بمشيئتها ، وكلما عظمت الدولة وعظمت ثروتها تشعبت مصالحها واشتدت رغبتها في فتح الأبواب لها ولغيرها ، لأنها تستطيع — ولو نافست ذلك الغير — أن تحقق مصالحها في البلد المفتوح بما لها من الوفرة والقدرة على الصبر والاحتمال وعلى تبادل المنافع بينها وبين مختلف الأمم والجهات ، وربما كان من الأمم التي تحتاج اليها ذلك القوى الطامع في احتكار السيطرة على هذا الوطن أو ذاك .

وتأتى قضايا الأوطان في الصف الأول بين قضايا الخطر على السلام العالمى والوحدة الانسانية ، ومنها قضايا الاستقلال فى الأمم التى تحكمها أمم أجنبية ، وقضايا النزاع بين الأوطان المتنافسة على النفوذ والمرافق المشتركة ، وقضايا النزاع بين الدول القوية التى تختلف فيما بينها على سياسة المحكومين وعلى العلاقات الدولية فى جملتها ، وكلها من يناهض الخطر التى لا تؤمن غائلتها على علاقات التضامن بين الأمم ومن ثم على الأمل فى اقتراب عهد الوحدة الانسانية .

غير أن هذه القضايا أيضا من أسباب التمهيد التي لا محيد عنها لتحقيق الوحدة الانسانية أو تحقيق التعاون بين أقوى الأمم وضعفائها وبين المتقدم منها والمتخلف في الحضارة وأحوال المعيشة . فقيام الأوطان المعترف بها خطوة لازمة قبل خطوة الوحدة العالمية ، اذ كانت الوحدة لا تتأتى بين أوطان مغصوبة وأوطان غاصبة وبين أمم مجردة من الحقوق وأمم تعتدى على تلك الحقوق ولا تعترف بها ولا بالاعتداء عليها . فمن الطبيعي اذا قامت للعالم أسرة واحدة أن تتألف هذه الأسرة من أعضاء تربط بينهم رعاية القرابة والمشاركة في الحرية والكرامة . وليست قضايا الأوطان الا المقدمة التي لا بد منها لتلك النتيجة التي تقضى اليها ، وهي اليوم ينبوع من ينابيع النزاع والخطر ولكنها في الغد ضمان من ضمانات السلام والتعاون والمشاركة في الأعباء العالمية ، مثلها في ذلك مثل الحقوق الشخصية الذي أصبحت في كل مجتمع من مجتمعات الحضارة ضمانا للنظام والشرعية في ذلك المجتمع ، بعد أن كان النزاع بين الأشخاص حائلا دون قيام الوحدة في الجماعة على أساس القومية .

ان قضايا الأوطان هي أيضا من طلائع الوحدة العالمية التي تنطوى على البشارة حين تنطوى على النذير ، وهي اليوم محل اعتراف في الرأي وان لم تبلغ بعد مبلغ الاعتراف في الواقع ، اذ كان تقرير المصير مبدأ مسلما في معاملات الدول ومحافلها المجتمعة ، فلا ينكره أحد من المعارضين له في سياسته العملية ، بل نرى من الحاكمين الأجانب من يحتال عليه بتوحيد الوطن الحاكم والوطن المحكوم واعتبار الرعايا شركاء للرعاة في الحقوق الوطنية ووظائف الدولة ، وهي ظاهرة من ظواهر العصر لا تبخس قيمتها العملية فضلا عن قيمتها النظرية ، لأن المضي في الدعوى المنكرة باجماع الأمم أمر لا تطول المغالطة فيه .

وأخطر من قضايا الأوطان على الوحدة العالمية قضايا العناصر
والسلالات ، لأن الخلاف عليها لم ينحسم بعد في الرأي ولا في الواقع ،
ولا تزال ذريعة للدعوى باسم من الأسماء تتفاوت في الصراحة والاستقامة
وفي الرباء والالتواء .

على أننا إذا نظرنا الى تاريخ دعوى العناصر والأجناس من ناحيتها
النظرية لم نخطئ أن نلمس فيها جنوحا مطردا الى التقارب وابتعادا
مطردا عن التشبث بالفواصل المزعومة بين عناصر البشر في الزمن القديم .
كان علم الأجناس البشرية يتجه في القرن التاسع عشر الى توسيع
المسافة بين أجناس البشر واثبات الفوارق البعيدة بين كل جنس منها
وسائر الأجناس الأخرى ، وكان يخلط كثيرا بين فكرة الأمة وفكرة
العنصر . وهما شيئان مختلفان ، لأن الأمة على الأرجح رابطة اجتماعية
تاريخية في حين أن العنصر رابطة من روابط الدم والسلالة العصبية ،
وقد تتفرق مواقعها فلا تجمعها بقعة واحدة ، وكان للعوامل الدولية
والسياسية حكمها في كل من الاتجاهين ، فكان الاستعمار وحج التسلط
هما الباعث الأكبر على توسيع الفوارق بين الأجناس ، وعلى تفضيل
جنس منها على سائرهما ، تسويغا للسيطرة والاستغلال واقامة الحكم
الأجنبي في البلاد المستعمرة ، أو تسويغا للسيادة والانتفاع بالمرافق
والجهود المسخرة .

كانت الدولة الجرمانية تبحث عن مستعمرات لها في الشرق الأقصى
بعد أن تم تقسيم المستعمرات في افريقية وآسية . فنادى الساسة فيها
بالخطر الأصفر ، وأرادوا به الخطر المتوقع من جانب اليابان والصين
إذا انطلق « التنين الأصفر » — كما سموه — في طريق الحرية والتقدم
وترددت صيحة الخطر الأصفر في كل دولة تبعا لموقفها من البلاد

الشرقية ، سواء وقفت منها موقف الطامع في ضم البلاد أو موقف الطامع في الامتيازات التجارية والاقتصادية .

وشاعت بعد صيحة الخطر الأصفر دعوة التفرقة بين الآريين والساميين واشتدت هذه الدعوة حين أصبحت كلمة الساميين في أوربة مرادفة لكلمة اليهود ، وأصبح اليهود هم المقصودين بعداوة السلالة السامية ، واقتربت الدعوة الآرية بتقسيم الأوربيين الى شماليين وجنوبيين لادعاء أصحاب هذه الدعوة أن أبناء الشمال في القارة الأوربية آريون خالصون ، لم يختلطوا بالأجناس الأخرى التي يزعمون أنها دون أبناء الشمال في الذكاء والأخلاق ، وتجدد الخلاف في أثناء ذلك على حقوق الزنوج - أو حقوق السود - بين أبناء البلاد التي يختلطون فيها بالأجناس البيضاء . فاعتمدوا - عدا هذه الحقوق - على الفوارق العنصرية وبالغوا في توسيع هذه الفوارق وراء فوارق اللون والشكل ، كأنها من الفوارق العميقة في التكوين لا تمحوها المساواة في الحقوق السياسية ولا يجدى فيها توحيد التربية والتعليم .

كانت هذه العوامل الدولية أهم العوامل التي دعت الى توسيع الفوارق بين الأجناس البشرية في القرن التاسع عشر ولم تزل شائعة قوية الى منتصف القرن العشرين .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير اتجاه الدعوة لأسباب كثيرة ، منها يقظة الشعوب الشرقية ورغبة الدول الكبرى في كسب مودتها ، ومنها تنافس الدول الكبرى وسعى كل منها في إبطال حجج الدول المنافسة لها ، ومنها اجتهد اليهود في تبرئة أنفسهم من النقائص والعيوب التي تخصهم بين الشعوب السامية ، ومنها تقدم العلم واتساع نطاق البحث بين الأجناس المجهولة وكثرة الأدلة على بطلان بعض الفوارق

واقتراب وجوه الشبه بين الناس من مختلف الألوان والأوطان .

فالباحثون اليوم في علم الأجناس لا ينفون وجود الفوارق بين جنس و جنس منها ولا يقولون ان النوع الانساني كله جنس واحد لا تميز فيه بين الصفات الجسدية والعقلية ، ولكنهم يقللون من المبالغة في أصالة هذه الفوارق ويقولون انها تتغير أحيانا بتغير المعيشة والبيئة وان الصفات المميزة لكل جنس منها قد تنتقل الى الجنس الآخر بالتربية والقدوة وتعود المعيشة والمعاملة في مثل أحواله وظروفه ، وقد انتقل منها الكثير حتى الآن ، اما لطول الاختلاط بين الأمم ، واما لكثرة التبدل والتطور في ظروف المعيشة ، واما لوقوع الاختلاف الطبيعي بين أفراد الأمة الواحدة والجنس الواحد كما يحدث في الأسرة الواحدة فضلا عن البلد والأقليم .

وما من صفة من صفات البنية والتركيب ثبت بعد البحث والمقارنة أنها خاصة مقصورة على جنس واحد لا يتصف بها جنس آخر اذا تعرض لظروفه وملابساته ، فشكل الرأس بين الاستدارة والاستطالة كان معدودا من العلامات الفاصلة بين الأجناس ، فظهر من بحوث العالم الأمريكى فرانز بواس Franz Boas أنها علامة تتغير بتغير البيئة ، وأن الأطفال المهاجرين من بلاد أخرى تختلف أشكال جماجمهم ولا تشبه جماجم آبائهم كل الشبه مع تبدل الموطن والمعيشة . وأبناء السويد — كما هو معلوم — معدودون من خلاصة الأجناس الشمالية ، أو النوردية — ولكن العالمين ريتزيوس Retzius وفورست Furst سجلا نتيجة الكشف على خمسة وأربعين ألف شاب من المطلوبين للتجنيد فتبين لهما أن الصفات المخصصة للجنس الشمالى الخالص لا تجتمع لأكثر من خمسة آلاف منهم ، وان الذين تجتمع لهم هذه الصفات في اقليم

من أقاليم الشمال على نحو أربعين في المائة . وقد أعيد اجراء هذه البحوث بعد ثلاثين سنة وسجلت صفات سبعة وأربعين ألفا من المجندين فتبين أن واحدا وثمانين في المائة منهم كانوا زرق العيون زرقة خفيفة ، وان ثمانية في المائة منهم لهم عيون مشوبة اللون وأن خمسة في المائة منهم لهم عيون بنية . أما لون الشعر فقد كان في سبعة في المائة منهم كتانيا ، وفي ثلاثة وستين في المائة بنيا خفيفا ، وفي خمسة وعشرين في المائة بنيا مسودا ، وفي ثلاثة في المائة أحمر أو أدنى الى احمرار . وسجلت العلامة الكبرى — أو العلامة الأولى — من علامات الفوارق بين الأجناس ، وهى شكل الجمجمة ، فظهر أن أصحاب الجماجم المستطيلة لا يزيدون على ثلاثين في المائة ، وأن ستة وخمسين في المائة منهم متوسطون بين الاستطالة والاستدارة ، وأن أربعة عشر في المائة عراض الرؤوس ، وظهر أن لون الشعر ولون العين يقتربان . ولكن لا صلة لهذا اللون أو ذاك بطول القامة وتركيب الدماغ .

هذا غاية ما انتهى اليه صفاء المزايا العنصرية في بلاد السويد ، وهى أقصى البلاد شمالا وأبعدها عن الاختلاط بأمم الجنوب ، وتسفر الاحصاءات عن نتيجة كهذه النتيجة في سكان البلاد الجرمانية . ففيها أصحاب العيون الزرق والجماجم المستطيلة والقامات الطوال ، وفيها الملايين ممن يشبهون أهل الجنوب ويسمونهم بالسلالة الألبية ، نسبة الى جبال الألب . وفيها وسط بين هؤلاء وهؤلاء موزعين بين الأقاليم الشرقية والغربية وبين الشمال والجنوب^(١) .

واذا تجاوزنا الصفات الجسدية الى صفات العقل والخلق فالواقع

(١) من كتاب نماذج بشرية Human Types لمؤلفه رايموند فيرث Firth بتصرف .

الذى لا جدال فيه ان الحضارات العالمية جميعا لم تنشأ فى قطر من أقطار الشمال ، وان أعظم هذه الحضارات قد نشأ فى الجنوب على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وبعضها قد نشأ فى الشرق الأقصى بين الشعوب الصفراء أو فى البلاد البابلية والفارسية والهندية ، وهى متعددة العناصر والأجناس . وقد ظهر من اختلاف العادات والتقاليد أنها لا ترجع فى أساسها الى اختلاف أصيل فى التكوين وأن الناس قد يخجلون من بعض الأمور ولا يتفقون على تلك الأمور فى كل أمة ولا فى كل زمن . ولكن شعور الخجل موجود بينهم جميعا وان كان بعضهم يخجل من شئ وبعضهم يحسبه من المألوفات التى لا ضير فيها . فلا يمكن أن يقال من أجل هذا ان هذه الأمة تعرف الأخلاق وتحترمها وان تلك الأمة تجهلها ولا تكثر لها . فمثل هذا يحدث فى اختلاف الأطعمة على حسب المواقع الجغرافية والمحاصيل الزراعية ، فتعيش جماعة من الناس على لحوم الصيد والماشية وتعيش جماعة أخرى على لحوم الأسماك ويعيش غيرها على النبات وقد يحرم أكل الحيوان ، ويتناول غيرهم جميع هذه الأطعمة حسبما ييسر منها لديهم ، ولا يقال من أجل ذلك ان هذه الأمة تعرف الجهاز الهضمى وتلك الأمة لا تعرفه ، ولا يقال من أجله ان تكوين المعدات والأجسام فى أساسه مختلف لا يقبل التغير والتطور . وربما حدثت من تنوع مواد الغذاء قابليات جسدية محسوسة الأثر . بل ربما حدث لجماعة من الجماعات المتعددة أن تصاب بالمرض من أكلة تسيغها جماعة أخرى وتنتفع بها ، ثم يقف الأمر عند ذلك ولا يعدوه الى التفرقة بين هذه الجماعات فى أصول التركيب وفى أجهزة الجسم ووظائف الجوارح والأعضاء ، وعلى الجملة يحق لنا بعد تجارب العلم الحديث فى هذه السنين أن نردد قول شاعرنا أنهم جميعا أسرة واحدة « أبوهم

آدم والأم حواء» مهما يكن تفسير العلم الحديث لمعنى تلك الأبوة وتلك الأمم . وكل ما ثبت من الفروق — حتى الفروق الوراثية — يعود في وقت قريب أو بعيد الى أسباب مكتسبة تتغير مع البيئة والزمن وطول الاختلاط بين الأمم والقبائل . فليس للسيادة صفات ثابتة في جنس دون جنس . ولا في أمة دون أمة . وقد سادت في القارة الأوربية أمم من المغول والساميين ، وساد أناس من السود بين أناس من البيض ، ودارت الحضارة دواليك من شرق الى غرب ومن جنوب الى شمال . ومهما تتعدد أجناس الانسان فالنوع الانساني واحد والخصائص الانسانية عامة مشاعة غير محتكرة ولا مقصورة مدى الزمن على بقعة دون بقعة ولا على سلالة دون سلالة .

ولا ننسى موطن العبرة في هذا الاتجاه الصالح الذي يتجه اليه علم الأجناس بعد الحرب العالمية الثانية . فان العلم قد تطفئ عليه السياسة حقبة تطول أو تقصر ولكنه يتخلص من طغيانها ليجرى في مجراه .



هذه آراء علمية من ولائد القرن العشرين ، لم يكن يقابلها في القرن التاسع عشر غير دعوات انسانية تتمثل في المناداة بتحرير الأرقاء أو انصاف الشعوب المحكومة من جنس الحاكم المتسلط عليها أو من غير جنسه ، ولم تكن منها دعوة تستند الى البحث في خصائص الجنس أو تكوين السلالة أو شواهد العلم التي تقارب بين أبناء النوع الانساني في الخصائص والتكوين ، وقصاراها من الانصاف — انصاف العاطفة والمرءة — انها كانت تنادى بأن العبيد أكرم من الحيوان فلا يجوز أن يباعوا ويشتروا في الأسواق كما تباع الماشية العجاء ، ولا يمنع هذا أن يكون المنادى بتفضيل الانسان الأسود على الحيوان مناديا عن يقين

وثقة برسالة الرجل الأبيض وأمانته المنوطة بجنسه دون سائر الأجناس البشرية ، وهي أمانة السيادة على جميع تلك الأجناس .

أما البحث العلمى الذى يسفر عن التسوية فى الأصول والفروع بين أبناء النوع الانسانى فهو — كما تقدم — من ولائد القرن العشرين لم يسبق اليه فيما مضى من القرون ، وهو احدى علامات الزمن ولو قيل انه بلغ ما بلغه فى القرن العشرين لحدائة البحث فى علم الانسان وعلم الأجناس . فان الاهتمام بهذا البحث هو نفسه علامة كبرى من علامات الزمن جاءت فى أوانها على قدر مع سائر البحوث التى تجنح بالأمم طوعا أو كرها الى التضامن والوحدة الانسانية .

وكل علامة من علامات الزمن لها شأنها ولها دلالتها ، ولكننا لا نغلو بها فنجعلها فى قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع ، فقد يؤمن الناس بالاخوة فى الأسرة — فضلا عن الاخوة فى النوع بأسره — ولا يؤمنون بالمساواة أو بالانصاف . ولكن دلالة الزمن اذا اقترنت بنتائج الواقع كانت هى قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع . ومن نتائج الواقع فى القرن العشرين أن يخفق دعاة العدوان باسم العصبية العنصرية وأن يتعذر تسخير العصبية للعصبية بالقوة أو بالحيلة ، ولا نعرف فى التاريخ قرنا تعذر فيه حكم الجنس للجنس المغاير له كما يتعذر هذا الحكم فى القرن العشرين . وقد جربت دعوة الجنس الآرى للغلبة على غير الآريين وجربت دعوة الجنس الأصفر لسيادة أمة من الأمم على القارة الآسيوية على مبدأ «آسيا للآسيويين» فلم يجد أصحاب هذه التجارب من ثمراتها ما يفريهم بالمعاودة والتكرار ، ولم يظهر لنا من قبل — ولا يظهر لنا الآن — ان اصطدام سلالة بسلالة خطر يجتاح العالم ويشطر بنى الانسان معسكرين أو عدة معسكرات .

كلا . بل يظهر لنا اليوم أن الخطر الذى يندر باجتياح العالم ويوشك أن يشطره الى معسكرين متناحرين انما هو خطر واسع يطوى الأجناس والطوائف فى برنامج شامل يعده كل من الطرفين المتقابلين لتطبيقه على جميع الشعوب من جميع الأجناس والألوان .

كل على طريقته يبشر بالوحدة العالمية ، وقد ينقسم أبناء الوطن الواحد والجنس الواحد فريقين متقابلين ، يريد أحدهما أن يوحد العالم الانسانى على هذه الطريقة ويريد مخالفوه ومناقضوه أن يحققوا هذه الوحدة على الطريقة الأخرى .

هنا أيضا يتراءى لنا أن تيار الوحدة العالمية هو الغالب على كل تيار يعترضه وينشئ به عن مجراه . فلا تناقض فى الوجهة وانما التناقض فى الدفة التى تسير بالسفينة اليها .

ولا يرى حتى الآن أن المعسكرين (وهما — كما هو ظاهر — معسكر الديمقراطية ومعسكر الشيوعية) يتباعدان فى التطبيق ويولى كلاهما الى الطرف الأقصى من دعواه ، بل يرى على خلاف ذلك أن المستقبل كقيل بالتقريب بين الديمقراطية والشيوعية فى مسألة المسائل بين المذهبين وهى مسألة الطبقات ، لأن معسكر الديمقراطية يقل التفاوت فيه بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء وتتوزع الثروات الكبيرة فيه بين أصحاب الحصص والسهم فلا يتمكن فيها أحد من حصر الثراء فى يديه أو من الاستئثار بنفوذ المال ونفوذ الحكم والجاه ، ويقابل هذا فى المعسكر الشيوعى أن الطبقات تعدد ولا تتوحد وأن العمال يتفاوتون كما تتفاوت الأعمال ، وأن الاحتكار ينتقل من أيدي الأفراد والشركات الى أيدي الدولة ويوشك أن يثير عليها رعاياها ويضطرها الى النزول عن كثير من السلطان المطلق الذى يمكنها منه احتكار المال والصناعة . وليس هنالك

من تضارب أساسى بين أسلوب المعيشة الذى يؤدى اليه توزيع السلطة وتوزيع العمل وتوزيع الثروة على كلتا الطريقتين : طريقة الديمقراطية وطريقة الشيوعية على وجهتها التى تتجه اليها .

* * *

وغير بعيد — مع المهدات الكثيرة للتوفيق بين مذاهب الشرق والغرب — أن يقع المحذور قبل بلوغ الأمد المنظور ، فإن الخطر لا يطرأ من تباين المذاهب أو البرامج فى جميع الأحوال ، بل كثيرا ما يطرأ من تنازع القائمين عليها والمتولين لتنفيذها ، خوفا على أنظمة الحكم التى تسندهم أو عجزا عن التفاهم بينهم وبين أعدائهم فى الداخل والخارج ، أو صرفا لأنظار الشعوب عن أسباب القلق والشكاية ، وما هى الا خطوة تزل بها القدم فيستعصى على حكمة العالم كله أن يؤمنوا عواقبها قبل فوات أوانها ، وقد حدث ذلك فى التاريخ القريب كما حدث فى التاريخ البعيد ف وقعت الحروب لغير ضرورة عامة تستلزمها ولم يكن من الحتم وقوعها لأسبابها العارضة ، فما يحسب أحد من المؤرخين لحوادث الحربين العالميتين يعتقد أن حادثة سيرا جيفو أو حادثة دانزج كانتا توجبان الحرب ضربة لازمة لولا سوء التقدير من الحاكمين وولادة الأمور . ومثل هذا قد يحدث غدا فتتبعه الحرب الثالثة وتدفع بالعالم الانسانى الى الهاوية التى لا نجاة له منها كما نجا من الحروب الغابرة ، قبل اختراع القذائف النووية والصواريخ الموجهة وما اليها من أسلحة الفناء والدمار .

ذلك كله غير مستحيل . الا أننا حريون ان نذكر أن ضوابط السلم فى العالم قد بلغت فى عصرنا هذا ما لم تبلغه قط فى عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ، واننا فى عصر لا تؤمن فيه غوائل الحروب على المنهزمين والمتصرين ولا يسهل فيه الهجوم على الحرب قبل استنفاد كل حيلة

من حيل التوفيق أو حيل التأجيل والامهال

فالقوى بين المعسكرين متكافئة متوازنة مهما يكن من الفارق بينهما ، فهو فارق لا يفرى بالطمع فى الغلبة على ثقة من عوارض الحرب ونكساتها المجهولة .

وقد كانت شرور الحرب فيما مضى تنتهى بنهايتها وتتلوها الغنيمة المضمونة لمن يفوز بالغلبة فيها ، وليست الغنيمة اليوم مضمونة للظافر المتغلب بل لعله يبوء من الغلبة بالخسارة والتعويض للأمم التى أصابها الهزيمة الفادحة ، وعلى قدر فداحة الهزيمة يكون سوء الحالة بين الشعوب التى تبلى بجرائرها ، ويكون العبء الثقيل على كواهل الظافرين المسئولين عن تلك الجرائر ، الخائفين على أنفسهم من عقابيلها ، وأولها انهدام القواعد التى يقوم عليها بناء المجتمع عندهم سواء منها ما قام على الديمقراطية أو على الشيوعية ...

ومن ضوابط السلم فى عصرنا أن الهجوم على الحرب عسير على ولاية الأمر فى الأمم الدستورية وغير يسير على ولاية الأمر فى الأمم التى تخضع للحكم المطلق على صورة من صورهِ السافرة أو المقنعة . فليس فى هذه الأمم أو تلك رئيس واحد يملك أن يعلن الحرب وأن يقبض على زمامها وهو آمن على بقاء ذلك الزمام فى يديه الى النهاية . ولا بد من النظر الى عامل جديد فى هذا العصر لم يكن له شأن خطير فى حروب الأزمنة الغابرة ، ونعنى به شأن المحايدين الذين يرجحون احدى الكفتين بالتزام الحيده أو بالسماح لأحد الفريقين بمعونة التمويل وتيسير المواصلات ونقل الأخبار والمعلومات ، فلم يكن للمحايدين مثل هذا الشأن فى حروب الأزمنة الغابرة ، وليس من المستطاع فى حرب عالمية اغفال شأنهم كبارا وصغارا فى بقعة من بقاع الكرة الأرضية ، وليس من

اليسير اقناعهم ولا انتزاع معوتهم على الرغم منهم . فاذا تيسر لولاة الأمر في دولة كبيرة أن يقنعوا المعارضين لهم في بلادهم فليس اقناع المعارضين لهم في خارج بلادهم بالأمر اليسير .

وقد نرى غدا أن وبال الأسلحة الجديدة هي صمام الأمان ومفتاح الأمل في اجتناب الحرب العالمية ، فان تعذر اجتناب الحرب فربما اتفق الرأي على اجتناب الأسلحة الجائحة من قذائف الذرة والصواريخ الموجهة وما إليها ، ويصح القياس في هذا الأمل على أسلحة معروفة تمكن المقاتلون من اجتنابها وهي أفتك وأقرب الى متناول الجميع من أسلحة الذرة والصواريخ ، وتلك هي الأسلحة المكروية .

فالأمم التي تقدر على صناعة أسلحة المكروبات والجراثيم أكثر من الأمم التي تخرع الأسلحة الذرية والصاروخية ، ونفقات الأسلحة التي تنشر عدوى الطواعين والأوبئة أقل من نفقات شق الذرة وتوجيه الصاروخ ، والكوارث التي تلحقها بالأعداء أشد من كوارث القذائف المرهوبة من كل سلاح جديد ، وقد أصبحت صناعة الأسلحة المكروية في طاقة عشرات من الأمم قبل اتقان الطيران وقبل التمكن من اصابة المرمى البعيد بالمدفع والبندقية ، فان تلويث الأنهار والأمواه — بل تلويث الأجواء — في البلاد المعادية لم يكن عسيرا على أمة لديها معامل التحليل والتركيب وان لم تكن لديها مصانع التسليح ، وفي وسع شرذمة من الجواسيس أن تندس في أطراف البلد المقصود فتتشر فيه الوباء وتعطل فيه كل وسيلة من وسائل القتال والاستعداد وكل وسيلة من وسائل التموين والعلاج ، ولم يحدث حتى اليوم أن أحدا في مآزق من مآزق الهزيمة التي تهون كل شيء على اليأس المستमित قد أغراه اليأس باستخدام هذا السلاح . فلا نغلو في التفاؤل اذا علقنا الرجاء بحكمة

الشعوب الانسانية أن تتجنب خطر الذرة كما تجنبت خطر الجراثيم .
والذرة المنشقة — بعد — ليست بالكلمة الأخيرة في علم المخترعين
بأسرار الاشعاع وحركات الأثير . فقد يعلمون بعد حين ما يجهلونه الآن
من حركات الأمواج الأثيرية دفعا وطرذا وسرعة وبطئا فلا يستعصى
عليهم أن يقابلوا الموجات المندفعة من شق الذرة بموجات تصدها وتلغيها،
ولا يعسر عليهم أن يهيئوا منطقة من الجو لتعديل الموجات الشعاعية
وتوجيهها الى الأعلى أو الى الأسفل أو الى الوجهة التي تتحول بها من
الحركة الضارة الى الحركة السليمة ، وانه لحلم من أحلام العلم لو تحقق
لكان في مخترعات الصناعة عصمة من بوائقها الجائحة ولم يوكل رجاء
الناس كله الى عصمة الضمائر والأخلاق .

وسيتحقق هذا الحلم في بقية هذا القرن العشرين أو يظل من أحلام
العلم والانسانية زمنا يعلمه الله . ولكن مسير العالم من التضامن الى
التعاون لا يتوقف عليه . فاذا اشتبكت علاقات التضامن غاية اشتباكها
فالتعاون بين الشعوب العالمية كائن لا محالة ضرورة واختيارا في حقبة
من المستقبل القريب لا تطول بعد نهاية القرن العشرين .

٨ - أفريقية وآسيا

ان أربعين سنة مضت منذ الحرب العالمية الأولى قد صنعت الأعاجيب في قضايا القارتين الأفريقية والآسيوية ، فماذا تصنع السنوات الأربعون التي تمضى من الآن الى نهاية القرن العشرين ؟

لقد كانت القارتان سلعة تباع وتشترى ، فأصبحنا بعد الحرب العالمية الثانية على الخصوص شريكتين في سياسة العالم ، وان لم تكونا موفورتى الأسهم في مشاركتها .

ولم يحدث هذا التحول في هوادة ومطاوعة ولا كان حدوثه مفاجأة بغير مقدماته الطوال . وانما فصل العالم في هذه القضية بعد أن فصل في قضاياها المتشعبة التي تتوقف عليها ، وهي قضية تقرير المصير ، وقضية اللون والعنصر ، وقضية الاحتكار ، وقضية العزلة السياسية . فكانت قضية القارتين هي مجموعة هذه القضايا في دور التفاهم والاتفاق .

ونظرة سريعة — بل نظرة مملوءة بالتدبر والروية — الى حالة القارتين في مطلع القرن العشرين وحالتها في منتصفه ترينا أن العالم غير واقف في هذه القضايا وان حلوله لها ليست كلها من قبيل الخداع والتمويه كما يحلو لبعض المتحذلقين أن يرددوا ويعيدوا ويبدئوا في الحكم على كل مرحلة كبيرة من مراحل الانتقال ، وليست الغفلة في الظن والالتهام بأقل من الغفلة في الثقة والتصديق . بل ربما كان الالتهام الأعمى أضل وأضيع للفكر وللمصلحة من الثقة العمياء .

ان نظرة مملوءة بالتدبر والروية فيما حدث في القارتين منذ الحرب العالمية الأولى ترينا أن الخضوع للحكم الأجنبي كان هو القاعدة المطردة

في القارتين قبيل منتصف القرن العشرين ، وكان الشذوذ فيهما هو الحكم المستقل أو الحكومة الذاتية ، ومن مسائل الحساب — لا من مسائل السياسة — أن نحصى الآن عدد الأمم الخاضعة للحكم الأجنبي وعدد الأمم المستقلة بحكمها والمشاركة في حكومتها فنعلم أن الأمر قد تحول من تقيض الى تقيض ، فأصبح الخضوع للأجنبي شذوذا وأصبح الاستقلال على درجاته قاعدة يعترف بها المتنازعون عليه وغير المتنازعين . ومن الحذقة أن يقال انه استقلال لم يحققه العمل ولم يثبتته الواقع . فان الفرق فيه كالفرق بين الحدث الناشئ الذي لا يملك التصرف لقصوره وانكار حق التصرف عليه وبين الرجل الرشيد الذي يشق عليه أن يفعل ما يشاء وهو يملك أن يفعل ما يشاء عند مؤاتاة الفرص وملاءمة الظروف : كلاهما قد يشبه صاحبه أمام الواقع الذي لا يقدر عليه ، ولكن الفرق بين القاصر والرشيد فرق صحيح في الواقع لا يستهان به ولا يزهد فيه . ان الاستعمار القائم على السلاح والاحتكار صفحة مطوية لا يقوى أحد في العصر الحاضر على نشرها ، وان العلاقة بين الأمم اليوم علاقة مشاركة يقع فيها الغبن كما يقع فيها الانصاف . ولكنها — كيفما كان الحال — علاقة غير علاقة السلعة التي تباع وتشترى وتحتكر أو تبذل في الأسواق .

وفيما عدا شعوبا قليلة سيأتى موعدها من تقرير المصير لا محالة — يستطيع من يحقق النظر أن يعلم أن حدود الاستقلال قائمة على أساس واحد في جميع القارات ، وانما حدوده القدرة التي تتفاوت كلما تفاوتت حظوظ الشعوب من الحضارة والصناعة والثروة والتربية السياسية ، فليس في العالم أمة محكوم عليها بالخضوع الدائم لأنها غير أهل للاستقلال ، وليس في العالم كذلك أمة مستقلة تمام الاستقلال اذا كان

معنى ذلك أنها تفعل كل ما تريد وتستبد بالرأى فى كل ما تبتغيه ، ولكنها تملك من الاستقلال بمقدار ما تملك من العلم والثروة والكفاية السياسية . وكذلك يستقل الآحاد الراشدون فى حقوق التصرف والمعاملة فلا حجر عليه بحكم الشريعة ، وانما يصيبه الحجر أو يرتفع عنه اذا أصابه النقص فى قدرته أو عوفى من نقص القدرة بعمله وعمل سواه .

ان الأقوياء فى عصرنا هذا يحتاجون الى من هو أقوى منهم ، ومن هو أقوى منهم لا يسمح لهم ولا يقبل منهم أن يحتكروا الأسواق والميادين ، ولا يرى ضرورة لاحتكار الأسواق والميادين لنفسه لأنه قادر على المنافسة والمناظرة بغير احتكار ، وهذا هو دستور العلاقات الدولية الجديد بعد دستور الاستعمار القائم على الاحتكار بقوة السلاح . فلا مناص مع هذا الدستور الجديد من علاقة المشاركة كيفما كان اختلاف الأنصاء فيها وكيفما كانت قسمة الشريك من الغبن والخسارة أو من الربح والغنيمة .

طويت صفحة السلعة التى تباع وتشترى ، ونشرت بعدها صفحة المشاركة بين الأكفاء وغير الأكفاء ، وهى أشرف وأربح فى جميع الأحوال من الصفحة المطوية ، وهى — بعد حين — مرهونة بمصير التضامن العالمى الى التعاون على اضطرار أو التعاون على اختيار .

وسيجرى التعاون فى مجراه الذى توحيه ضرورات الحوادث ودراية الخبراء . وقد يهدينا تاريخ القرية الصغيرة فى ماضيها المعلوم الى تاريخ العالم الواسع فى مستقبله المجهول ، فان القرية قد تمثل لنا أطوار العالم فى مستقبله كما يمثل الجنين أطوار نوعه فى ماضيه على قول النشويين .

والقرية قد فرغت من تنظيم المبادلات بين أصحاب المال وأصحاب الحاجة فعالجتها فى سوقها الصغيرة بعلاجاتها المختلفة وهى :

« العملة ، أو المقايضة ، أو الرهن ، أو الضمان ، أو الخدمة سدادا للدين ، أو حساب الضائع والمفقود والاحسان . ثم لجأت أخيرا الى علاج يجمع بين مصالح الباعة والمشتريين وهو جماعات التعاون التى يعتبر المشتركون فيها من البائعين ومن المشتريين . ولا يحتاج العالم الواسع الى ابتداء علاج جديد غير هذه العلاجات التى طال عليها القدم ، ولكنه يحتاج الى الأساليب التى تمكنه من تطبيقها فى نطاقه الواسع ، ويحاول الآن شتى المحاولات فيهدى حيناً ويضل حيناً ، ولن يزال ردحا طويلا بين الهدى والضلال .

« ومهما يكن من صواب الآراء التى توحى بتلك المحاولات فالتجارب العملية حيلة ضرورية لا تغنى عنها محاولة يختارها أصحاب هذه الآراء . فهذه التجارب العملية هى التى تهدي كل أمة الى اجتناب الجهود الضائعة فى تقدير لوازمها والموازنة بين ما تحتاجه من العالم وما يحتاجه العالم منها ، واستمرار الاحساس بالنقص والتعويض من هنا تارة ومن هناك تارة أخرى خلى أن يوقظ الغافل ويرشد الضال ويصحح المخطئ عن جهالة منه وعن لاجاة فى الباطل .

« واذا كانت المحاولات من أهل الرأى لا تغنى عن التجارب العملية فالأمر الذى لا شك فيه كذلك ان التجارب العملية لا تغنى وحدها عن محاولات أهل الرأى وعن اختيار الحلول التى تتشى مع حلول الضرورة فتعجل خطاها وتقوم اعوجاجها ، وقد كان التساند بين ضرورات الواقع ومحاولات المدبرين والمتدبرين ديدنا طبيعيا يتكرر فى كل حركة من حركات التاريخ الكبرى ، ويصدق على أعمال الأفراد كما يصدق على أعمال الجماعات .

« فالهيئات الدولية — ولولم تكن لها سلطة عامة — تستطيع أن

تجمع الاحصاءات الدقيقة والبيانات الوافية ، وان تضع أمام المسؤولين في كل أمة تقديرا نافعا يلاحظونه في استخراج محصولاتهم ومصنوعاتهم فلا تضيع الجهود عبثا في زيادة صنف لا يطلب أو نزارة صنف مطلوب . « والحواجز المصطنعة التي تقام بين المعسكرين المتقابلين لا تثبت طويلا أمام الضرورات الحقيقية التي يحسها الناس في أرجاء الكرة الأرضية ، والاحطار الملفقة التي يخلقها الحاكمون لحماية أنفسهم تتطلب من الأمم فوق طاقتها وتدفعها جميعا الى احطار حقيقية يعجز الحاكمون عن اخفائها » .

« .. وليست العقبات في طريق التعاون بين الأمم وليدة اليوم ولا هي مما يزول غدا كل الزوال ، ولكنها صحت الانسان في عمله لذات نفسه وعمله لأهله وقومه ولا تزال تصحبه حيث كان ، لا يصلحها ولا يخفف ضررها الا ما يخفف كل ضرر اجتماعي من تطور الأخلاق وتطور الضمانات التي تكف عدوان المعتدى وتكفل للمصاب بالضرر أن يدفعه عنه بقوة العرف والقانون أو قوة الاتحاد بين المشتركين في المصاب الواحد ، وعلى هذه الوتيرة زالت عقبات كثيرة بالأمس وتزول غدا عقبات كثيرة لا مناص من زوالها مع تبدل الأحوال .

« ولنرجع الى مثل القرية التي عالجت شئونها في مشكلات العملة والمقايضة والرهن والضمان وسائر ما هنالك من أشباه هذه المشكلات . فالتاجر الذي يملك في القرية مالا يقرضه لأناس من أهلها ويشارك به أناسا آخرين في الزرع والماشية يكسب بهذا المال جاها يستغله في المشروع وغير المشروع من مآربه ولباناته . وقد يستغله في ابتزاز الحقوق وهتك الأعراض وايداء الأبرياء ، ولكنه لا يجعل هذا العمل قاعدة يعلنها ولا هو يعترف به اذا اتهمه به أحد ضحاياه ، ويختلف نصيب التاجر

من هذا الجاه باختلاف القرى واختلاف الآداب والعلاقات بين أهلها ، فيستطيع في قرية ما يعجز عنه في قرية غيرها ، وقد يصبح الجاه ضربة في عنقه يؤديها لمن يحترم جاهه ويقبل مكاتته بين عشيرته ، وقد يصبح ولا جاه له بينهم اذا عرفوا كيف يستغنون عن تجارته وكيف يتبادلون البيع والشراء بينهم على سنة التعاون وتكافؤ المنافع والصفقات . وان هذه الأحوال العامة في القرية لهي من معدن الأحوال العامة في الدنيا العريضة بما رحبت ، ولعلها هي بعد تكبير الأحجام وامتداد المسافات والأقوام ، والأعوام .. وقد كانت الدولة العظيمة قبل مائة سنة تسيطر — كتاجر القرية — على أسواق الدنيا وتكسب بعدتها وعتادها جاها يتيح لها أن تسخر شعوبها تسخير الأرقاء ، وأن تستفيد من حاجاتهم اليها ما يستفيده التاجر من حاجات العملاء . فأصبحت الدولة العظيمة وهي اليوم عاجزة عما كانت تقدر عليه قبل مائة سنة ، وقبل عشرين سنة ، وتغيرت أمور كثيرة في الدنيا قبل أن يتم هذا التغيير : بعض هذه الأمور الكثيرة أن الدولة العظيمة أصبحت دولا عظاما تتنافس فيما بينها وتحد كل منها من ارادة غيرها كما تحد غيرها من قدرتها ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن القابضين على أزمة الدولة في داخلها تغيروا وتغيرت مصالحهم في حكم أنفسهم وحكم الشعوب التي دخلت في حوزتهم ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن السيادة على الشعوب بالقوة والقسوة أصبحت من الصفقات الخاسرة التي تزيد كلفتها على غنيمتها ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن المغلوبين عرفوا حقوقهم وعرفوا حاجة الغالبين اليهم وعرفوا بينهم روابط من الشكاية المشتركة والمقاومة المشتركة لم تكن معروفة لأسلافهم . وجملة هذه الأمور تجيز لنا أن نوازن بين عوامل التضامن العالمي وعوامل الفرقة والشقاق فلا نبالغ اذا قلنا : ان الأولى راجحة على

الثانية ، لأن عوامل التضامن مقبلة متقدمة وعوامل الفرقة والشقاق مدبرة مترددة تنكص على عقبيها » (١) .

كانت القارة الأفريقية تسمى بالقارة المظلمة لأنها بقيت مجهولة على خريطة الكرة الأرضية يسكنها السود فيما عرف في أطرافها ويحيط بها سواد من الظلام والخفاء .

وكانت تسمى أحيانا بالقارة المنحنية لأنها تركت ركب الانسانية يسير في تاريخه الطويل ولبثت في مكانها كما كانت في مجاهل ذلك التاريخ .

وليست هي اليوم بالقارة المظلمة لأنها تكشففت عن دوائها وتسلطت عليها أنوار الاستطلاع في جوفها ومن حولها فلم تبق منها زاوية مجهولة أو بقعة غير مطروقة .

وليست هي بالقارة المنحنية لأنها أدركت ركب العالم في نهاية شوطه ويرجى أن تماشي وتمده فيما يستقبله من مراحل حضارته .
وقد صدق من سماها في السنوات الأخيرة بقارة الغد لأنها في الغد تبدأ مصيرها الذي تختاره بعد أن تفاهم العالم الانساني على حق الشعوب جميعا في تقرير المصير .

وكل مصير لأفريقية لا يكون مصيرا مرضيا للأفريقيين يخل بتضامن العالم ويعوق سيره الى التعاون والمؤاخاة . فلا تعاون بين الأمم في عالم يتخذ من أفريقية مطية يسوقها الى مصير غير مصيرها الذي ترضاه أو يتخذها ضيعة للمتغلبين المستغلين يبتزون ثمراتها ولا يتركون لأبنائها من تلك الثمرات غير فضلة الأجير المغبون .

ان سكان أفريقية ثلاث طوائف : أولها بطبيعة الحال أبناء أفريقية

(١) من مقدمة المؤلف على « رسالة التعاون الاقتصادي » بقلم ب . ج . وودز

الأصلاء الذين ولدوا فيها وولد فيها من قبلهم أسلافهم الى أزمة مجهولة والطائفة الثانية هم المهاجرون من القارة الآسيوية وأكثرهم من العرب والهنود وأبناء الجزر الملاوية ، والطائفة الثالثة أوريون مستعمرون ، وليس للطائفة الثانية مشكلة عسيرة الحل لأنها تبقى وتندمج في القارة أو تعود الى أوطانها باختيارها . أما المشكلة التي لا تحل بالحسنى فهي مشكلة المستعمر الذي يسطر سيادته على أهلها بغير أمل في انتهاء هذه السيادة الا أن يظل الأفريقيون تابعين له مسخرين في خدمته أو يثوروا عليه فيطردوه . ومهما يبلغ من سلطانهم على القارة فهو أضعف من الغاية التي يطمحون اليها والنية التي يبيتونها وهي نية الاصرار على استعباد مئات الملايين بغير أمل لهم في خلاص قريب أو بعيد ، وتلك نية تعارضها الطبيعة كما يعارضها أولئك الملايين المصابون بها . وقد يتخاذل دونها سلطان المستعمرين يوما من الأيام فلا تجتمع كلمتهم عليه في موقف الحسم حيث يحتاجون اليه ، ولن تصبح أفريقية وطنا للمستعمرين الا بوسيلة واحدة ، وهي أن يصبحوا أفريقيين كسائر الأفريقيين وأن يجيء اليوم الذي يقفون فيه مناضلين عن أفريقية كما فعل الأمريكي في نضاله مع البريطان والأسبان .

وسيخرج الأفريقى الأصيل من القرن العشرين بفائدة أكبر من فائدة تقرير المصير ، اذا تعود في السنين الباقية منه أن يلتمس الدراية التي تجعله يدا عاملة في تعميم النفع بخيرات بلاده وينابيعها الغنية . اذ لا معنى لتقرير المصير بغير هذه الدراية التي يقعد عنها اليوم جهله وسقمه وما ينوء به من بقايا الخرافات وتقاليد السذاجة في النظم الاجتماعية . ومما يبعث الأمل في نهضة لالتماس هذه الدراية أن طلاب المصالح العالمية من أمم الحضارة محتاجون الى تعليمه والانتفاع بمعرفته ، وهم يجدون أن التعاون معه

على فهم ورضى أيسر من تسخيره على الرغم منه أو الاستغناء عنه في تدبير مرافق بلاده .

يقول الخبير الاقتصادي كلارانس راندال : « ان المارد النائم يستيقظ ، وان قلب أفريقية في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب يخفق بآمال جديدة ومطامح جديدة ، وان الأفريقيين مستعدون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن يقرروا مصيرهم بأيديهم . ان الروح الاستقلالية التي كانت سائدة بيننا في عام ١٧٧٦ أصبحت الآن منتشرة في هذه البلاد الشاسعة حيث تكونت من البراري أمم جديدة لها نفس التصميم والجرأة اللذين امتاز بهما الرواد الأوائل من أسلافنا . وأفريقية التي كانت قارة عريقة في القدم يوم ولد متوشالغ قررت اليوم أن تندفع قدما الى حضارة القرن العشرين . وهي في ميزان القوى موفورة الثراء في الموارد الطبيعية التي سيحتاج اليها العالم الصناعي ذات يوم ، ولاتحاد أفريقية الجنوبية مستوى عال من الرخاء القائم على أساس من مناجم الذهب والماس والأورانيوم ، ولاتحاد روديسيا ونياسالاند أعظم مستودعات النحاس والكروم في العالم ، واكتشفت أنجولا النفط في أراضيها ، وفي الكونغو البلجيكية معدن الكوبالت والأورانيوم وصناعة الماس ، وتستعد أفريقية الاستوائية الفرنسية لاقامة مشروع ضخمة لخامة المنجنيز . وفي نياجرا الصفيح والكوبلت ، وفي ليبيريا وأفريقية الغربية الفرنسية خام الحديد ، وفي غانة تكثر أشجار الموجنة حتى لتصنع منها سلال المشروبات الخفيفة وتستعمل أخشابها في الشؤون العادية . وان أعظم موارد القوى الكامنة على كل حال لدى القوى الرائعة التي لا حدود لها : قوة توليد الكهرباء من مساقط الماء . ففي العصور الجيولوجية عندما تكونت القارة الأفريقية ألقي منحدر هائل من المحيط الأطلسي الى

داخل القارة مواز لسواحلها الغربية ، وعلى هذا المنحدر الذى يشمل معظم الجانب الأدنى من أفريقية تنساق الأنهار الكبرى الى انجريان فوق شلالات قبل أن تنصب فى المحيط الأطلسى . ولقد كانت هذه الشلالات حواجز منيعة فى وجه السفن البحرية ، فتأخر اكتشاف ما وراءها .. ولكن هذه الشلالات والمساقط تعتبر الآن بالنظر الى أفريقية التى أفضت بأسرارها للطائرات عشرات من أمثال شلال نياجرا وهى تنتظر الترويض والاستغلال . وهناك مستودعان كبيران لتوليد الكهرباء من مساقط المياه فى طريقهما الى الظهور الآن . فنهر زامبيزي يقوم عليه خزان كاريبي الذى شارك البنك الدولى فى تمويله وسيمد المناجم والمصانع فى روديسيا بالقوى المحركة الوافرة ، ولسوف يكون للكامبيرون الفرنسى قريبا خزان فى اقليم ايديا على نهر ساجانا . وهناك مشروع خزان أنجا على نهر الكونغو فى الكونغو البلجيكية ، وهو مشروع يبلغ من الضخامة أن تساوى القوى المولدة منه بعد تمامه خمس القوى التى تتولد فى الولايات المتحدة ، وعدا هذا وضعت الطبيعة الى جانب كل منطقة لتوليد الكهرباء على وجه التقريب مستودعات منجمية لا مثيل لها من البوكسيت الذى يكفى لتزويد العالم كله بمعدن الألمنيوم عدة أجيال . وقد حدث تطور لا بأس به فى وسائل المواصلات . فان خطوط الطيران التى تستخدم الطائرات الحديثة وتقدم أحسن الخدمات تعبر سماء القارة ذهابا ورجوعا فى كثير من الاتجاهات ، ويقتحم شريط السكة الحديدية طريقها الى داخل القارة ، وأصبح فى مقدور سيارة نقل أن تبدأ رحلتها فى الشاطئ الشرقى عند موزنبيق وتمضى الى الساحل الغربى فوق طرق ممهدة يتصل بعضها ببعض خلال روديسيا وأنجولا ، وأنشئت فى كل مكان على كلا الشاطئين موانئ جديدة .. وتزداد الأجور زيادة مطردة لا سيما على طول الشاطئ وفى

مناطق المناجم كما تزداد الواردات من البضائع والسلع المستنفدة ..»^(١). وهذه الموارد التي ذكرها الخبير المطلع لا تستوعب جميع الموارد المعروفة ولا جميع الموارد التي يمكن أن تعرف من قبيلها ، وهى كلها موارد موجودة مهيأة للتشجير والاستغلال بأدوات المصانع العصرية ، ولكنها غير الموارد المدخرة للتشجير والاستغلال من ينابيع غير معهودة ولا مطروقة فى الصناعة العصرية ، ونريد بها موارد الثروة التى يمكن أن تستخرج من اصلاح الصحارى الكبرى واستخدام أجوائها وشواطئها لخلق المناخ الملائم والتربة الغنية بثمراتها الزراعية والصناعية .. فهذه اذن قارة مستوفية لعتادها على أهبة لمجاراة أغنى القارات وأرقاها فى تزويد العالم بسطابه وضروراته ، لا تعوزها كيما تتم أهبتها الا أن يملك أهلها عدتهم من الحرية والدراية ، فهل يمر الزمن دون أن يقترب ذلك اليوم الذى يستوفى لها عتادها من حرية أهلها ودرايتهم كما استوفت عتادها من موارد الصناعة والزراعة ؟ وهل ترجع الى أمسها المظلم أو تتقدم الى مستقبلها ومستقبل العالم معها ؟ .. قبل أن ينتهى القرن العشرون ستعلم الدنيا المتطلعة مدى الخطوات التى تتقدم بها قارة الغد الى مصيرها ، وسترى أن تذليل مصاعب التقدم أهون جدا من انصعوبة التى تواجه العقل حين يتخيلها ناكسة على عقبيها مدبرة الى ما كانت عليه يوم كانت كهفا مغلقا أو فرقة متنحية عن مكانها من صفوف الأمم فى ركب الحضارة . ونحسب — على هذا — أن وصف القارة الأفريقية « بالتخلف » عن الركب ظلم لا تفره دعوى النشويين اذ يتبعون أول خطوة خطاها البشر من حظيرة الحيوان الأعجم فيرجعون بها الى مجاهل

(١) من مقال ملخص عن سترداى ايفننج بوست نشرته مجلة المختار

فى عدد ديسمبر ١٩٥٨ .

أفريقية في أقدم عهودها . فاذا صدق ظنهم لقد كانت هذه القارة أول من سبق الصفوف ، وكانت حركتها أعظم من أن يقاس بها مسير الحضارة من مبدئها الى منتهاها اليوم في عصر الذرة والطائرة الفلكية . ولقد تكون لها في الغد خطوة جديدة تضارع في نسبة الزمن خطواتها الأولى .

* * *

أما القارة الآسيوية فهي كالبرزخ بين أفريقية وسائر القارات ، كانت تقرن بأفريقية فتشملان مقاما يطلق عليه الشرق على سبيل التجوز أو من باب التسمية السياسية التي لا تتقيد بالحدود الجغرافية ، لأن هذا الشرق كان يخضع لحكم الأجنبي تارة وللامتيازات الأجنبية تارة أخرى . فكان نحو خمسمائة مليون من الهنود والأندونيسيين وأبناء الجنوب الشرقي في آسيا يخضعون لحكومات أوروبية ، وكان نحو خمسمائة مليون آخرين في الصين وما حولها يخضعون لامتيازات دولية تمتزج فيها سيطرة السياسة بسيطرة الاقتصاد . ولكن آسيا اليوم لها شأن أفريقية في علاقة الشرق بالدول الكبرى ، وتكاد أن تكون قد فرغت من قضية الحرية والسيادة بينها وبين تلك الدول وتقدمت الى الفصل في قضايا الحرية والسيادة بينها وبين حكامها من صميم أبنائها ، فارتبطت هذه القضايا المعقدة بأشأت من قضايا النظم الاجتماعية ومساائل المعيشة وحقوق الرعايا المحكومين وسلطات الرعاة الحاكمين . وهذه هي القضايا التي تجعلها برزخا بين الأمس والغد كما جعلتها برزخا بين أفريقية وسائر القارات ، فهي من ناحية تنظر الى الغد لتعالج مشكلات المعيشة والحكم على أضواء العلم الحديث والحضارة الصناعية ، وهي من غير هذه الناحية تنظر الى ماضيها الذي أخرج للعالم في جميع القارات عقائده وأديانه وقدم له شرائع بوذا وكنفشيوس كما قدم له شرائع موسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام ، فما من سؤال عن آسيا أهم وأسبق من السؤال عما تعتقد وبماذا تدين ، ويعاد هذا السؤال اليوم على مفترق الطريق لسمع العالم جوابا جديدا نحو الايمان أو نحو الانكار ، والى الحياة الروحية السماوية أو الى الحياة المادية الحيوانية .. وأمل بنى الانسان أن تكون لآسيا — قارة الأمس — بقية من ميراث الروح تمدهم به في بحثهم عن نور الهداية ، فماذا تملك آسيا من نورها الخالد في عصر النور الذى تتطلع اليه كما يتطلع العالم فى جميع قاراته ؟ ماذا تملك من نورها بعد أن أصبح النور فى لغة العلم والدين رمزا لمعانى الحس ومعانى التجريد والتنزيه ؟

ان أربعين قرنا مضت لا تنتهى الى غير شىء فى هذه السنين الأربعين التى بقيت من القرن العشرين .

٩ - المجتمع

من أضر الآفات بنظام الاجتماع أن تكون الطبقة الوسطى فى الأمة محرومة من وسائلها لابلأغ صوتها وإثبات حقها وتقرير مشيئتها .

فهذه الطبقة التى تؤدى للمجتمع معظم أعماله المتوسطة بين اقتناء الثروة والقيام بالصناعات اليدوية لا تملك المال والجاه كما يملكها العلية ولا تملك سلاح الاضراب والعمل المشترك كما يملكه أصحاب الأجور ، ولو ملكت معهما بعض ما ينبغى لها من المشاركة فى الرأى والنفوذ لاستحال قيام الحكم المطلق بسند من أصحاب المال والجاه أو بسند من أصحاب الأجور والصناعات اليدوية .

ان المجتمع المثالى هو المجتمع الذى تستطيع كل طبقة فيه أن تأخذ بنصيبها وتذود عن حقها بوسائلها ، ومثل هذا المجتمع لم يوجد بعد على تمامه ، ولكنه يوجد شيئاً فشيئاً كلما اتسع نطاق الصناعة الكبرى وتعددت مرافق المعاملات الاقتصادية ، وحالة الطبقة الوسطى هى أصدق المقاييس التى تقاس بها درجة المجتمع من الارتقاء والانتظام والعدل والحرية ، فلا سبيل الى استبداد فئة بغيرها فى مجتمع تنكافأ طبقاته وتتوازن فى القدرة والوسيلة . وانما ينجم الاستبداد حين تغلب فئة على سائر الفئات وتعجز الفئات المغلوبة عن مقاومتها ورد عاديتهما بسلاح من أسلحة المصلحة والكفاية .

فأصحاب الثروة قلة تعوض قلة العدد بوفرة الجاه والنفوذ ، وأصحاب الأعمال اليدوية كثرة تعوض الثروة بالقدرة على الاتحاد والاشتراك فى المطالبة ، وكلاهما تستطيع أن تتحكم فى المجتمع الذى تقف فيه طبقتة

الوسطى مشلولة الحركة محرومة من وسائل جمع الكلمة والاعراب عنها ولكنهما لا تستطيعان منفردتين أن تتحكما في أمة تتوسطها طبقة غير قليلة العدد ولا محرومة من وسائل الاتحاد ، كالطبقة الوسطى التى تظهر بين الفريقين كلما اتسع مجال الصناعة وتعددت الأعمال الفنية وضروب التصرف فى التجارة والزراعة وجملة المرافق الاقتصادية .

ومن بؤادر الأمل فى المستقبل أن المجتمع الحديث يتشئ الى هذه الغاية المثالية ، وان « الآلة » تعود فتظهر فى التاريخ أداة من أدوات النجاة كلما استحكمت مشكلات الاجتماع وتفاقت من جرائمها زعازع الفتنة والبغضاء .

فالثروة فى المجتمعات الصناعية لا تكفى وحدها للقبض على زمام النفوذ ، لأنها تحتاج أبدا الى خبراء الصناعة والادارة والاقتصاد ، وليس فى وسع صاحب الثروة أن يتخذ من المصنع الكبير سلاحا يملئ به مشيئته على قومه ، لأنه — وهو يملك المال — يضطر الى معونة المهندس والمدير وخير الاقتصاد ومتعهد الترويج والاعلان ، وربما جهل من شئون ثروته ما يعلمه هؤلاء ويقدرّون على التصرف فيه .

وهذه الثروة التى كانت تنحصر فى يد واحدة أو أيد قليلة يستدعى نظام المعاملة فى مجتمعات الصناعة الكبرى أن تتفرق بين الشركاء والمساهمين على حسب الحصص والسهم . فيحسب رأس المال بالملايين ويحسب مالكوه بالمئات والألوف ، ويصعب تقسيم المالكين فى هذه الحالة الى طبقات وفئات يقف بعضها من بعض موقف المغالبة والصراع . ويسرى مع نظام المساهمة نظام التعاون بين البائعين والشراة على سنة المشاركة والتضامن فى الكسب والخسارة ، وقلما تتباعد المسافة بين الطبقات حيث تحسب الثروة بالحصص والسهم بين المتعاونين والشركاء .

وقد كان العمل اليدوى خلوا من الفطنة والخبرة الفنية فى مصانع القرن التاسع عشر ، وكان العمال اليدويون هم الكثرة الغالبة بين أجراء الصناعة يزيد عددهم على عشرة أمثال الحذاق من الخبراء ومساعدتهم الفنيين ، فتطورت الصناعة ولا تزال تتطور حتى اختلفت النسبة بينهم أبعد اختلاف ، وأصبح العمل اليدوى أقل الأعمال فى المصانع الكبرى وما يصاحبها من المصانع الصغيرة وأجهزة الصناعة فى البيوت والمكاتب وأندية الفن ومعاهد التجارة وحقوق الزراعة ، وتلاحقت الدرجات من أعلى وظائف الهندسة والفن الى أدناها فاشتملت على طبقات مشتبكة الأطراف يصعب التمييز بينها والفصل بين مصالحها عند تمييز الطبقات على النحو القديم .

وكل تطور ينمو بالمجتمع نحو التقارب فى الطبقات والتشابه فى المصالح والحقوق فهو خطوة ثابتة تنمو به نحو الاستقرار والحرية ، فلا يتأتى فى مثل هذا المجتمع أن تسطو فئة منه على الفئات الأخرى ولا هى بحاجة الى ذلك تلح عليها فتحرضها على السطو والثورة . اذ كان معظم أسباب السخط والتمرد انما ينجم من الهوة الفاصلة بين فئة وفئة أو من الظلم الواضح فى تقسيم الأقدار والأرزاق ، وما من داع الى الطغيان والاستبداد بالأمر فى مجتمع ثقل فيه الفواصل وتكثر الروابط ويرجع فيه تفاوت الأقدار والأرزاق الى الدراية بالعمل النافع للجميع ولا يرجع الى التقاليد المبرمة والحواجز المفروضة بغير فارق معقول .

فالتعاون بين الطبقات هو التطور الملازم للصناعة الكبرى ، ولا استقرار قبل بلوغ ذلك الطور الذى يستعصى فيه على طبقة من الطبقات أن تستبد بغيرها ، ولا مفر من الاستبداد فى مجتمع تتغلب فيه احدى الفئات وتجور على سواها .

أما ثورة المحرومين فليست من لوازم الصناعة الكبرى وليست هي بالطور الأخير المحتوم الذى تنتهى اليه هذه الصناعة ، وانما تحدث هذه الثورة فى عهد الصناعة قبل اتساعها واستقرارها كما حدثت قبل عصور الصناعة فى التواريخ الغابرة ، ولابد أن تحدث مع الظلم والتفاوت كلما تهيأت لها بواعثها ومشجعاتها ، ومنها — بل فى مقدمتها على الدوام — أن تضعف هبة الحكم القائم وأن يتيسر للمحرومين أن يتألبوا فى مكان واحد ، اما فى حالة الجند المنهزمين ، واما فى حالة كحالة العمال والزراع المحشودين فى جوار واحد بين المناجم والحقول .

حدثت أشباه هذه الثورات بعد زوال الدولة القديمة فى مصر قبل أربعة آلاف سنة ، فشوهدت فيها جميع أعراض الثورات التى يربطها بعضهم بصناعة القرن العشرين ويحسبها الطور الأخير من أطوار تاريخ الانسان الى نهاية الزمان ، فجاء فى محفوظات البردى التى تخافت لنا من عهود الأسرات المألقة بعد السادسة أن العامة شكوا فى الدين وأضربوا عن الشعائر والقرايين ، وان أحدهم كان يقال له : تقرب الى الاله المعبود فيقول : لو عرفت مكانه لحملت اليه قربانه ، وان أوامر الأسرة قد انحلت فاستباح الأخ قتل أخيه واجترأ الولد على حرمان أمه وأبيه ، وان الزواج بطلت قداسته واستبيحت أعراض المصونات من كرائم البيوتات ، وان التى كانت تنظر وجهها فى الماء أصبحت تقتنى المرأة والحلية المنتقاة ، وان أصحاب السم والوقار خلعوا سمتهم ووقارهم وتزلقوا الى الخدم وشذاذ الآفاق ، وان الضياع هجرت والقصور دمرت ، واستولى من استطاع على ما استطاع كما سولت له المآرب والأطماع .. وحدث هذا كله بعد حقبة جارت فيها عليّة القوم على سفلتهم وانحصرت فيها الثروة بين أمرائهم وسرواتهم ، وتوالت فيها

الغارات والقلاقل من خارج البلاد وداخلها ، وسبق فيها الألوف من الزراع والعمال حشدا بعد حشد لبناء الأهرام وتشبيد الهياكل والتنقل من سخرة الى سخرة في خدمة الرؤساء وولاية الأمر ، بغير أجر بل بغير قوت في كثير من الأحيان غير الخبز القفار .

« وحدثت حركة الأرقاء في اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون ، وهم الأرقاء المعروفون باسم الهيلوت Helots أو باسم الضواحين نسبة الى الضاحية Perioeci وكلهم من الفلاحين زراع الأرض بالحصّة والمقاسمة في الثمرات . وقد تجمعوا بالألوف على مقربة من المدينة وهزموا قادة اسبرطة وألجأوا هذه المدينة الحربية الصارمة الى طلب النجدة من جيرانها ، فلم تقدر على صد الأرقاء الثائرين الا بعد حوالي عشر سنوات .

« وحدثت حركة الأرقاء في الدولة الرومانية بقيادة سبارتاكوس (سنة ٧٢ ق . م) الرقيق الذي تعلم المصارعة وتمكن من جمع زملائه في الرق فحشد منهم قرابة سبعين ألفا ودوخ الجيوش الرومانية بحملاته القوية حتى استنفد جهود الدولة وكلفها أن ترصد له أكبر قوادها من طراز كراسوس Pompey وبومبي Pompey فلم يخمدوا ثورته الا بعد غناء شديد .

وحدثت حركة الأرقاء في العصر الاسلامي بعد منتصف القرن الثالث للهجرة (وبعد منتصف القرن التاسع للميلاد) حين ثار زنج البصرة بقيادة على بن محمد بن عبد الرحيم ، وما برحت ثورتهم تحتدم وتخبو من أيام الخليفة المهدي بن الواثق الى أيام الخليفة المعتمد بن المتوكل ، وتمكن هؤلاء الزنج من التجمع لأنهم كانوا يعملون في الموانئ وسكنى الشواطئ كما كانوا يعملون في الزراعة ونقل البضاعة ، ولم يكن هؤلاء

الأرقاء ولا أرقاء (سبارتاكوس) أو أرقاء الهيلوت والضواحيين عمالا مسخرين في صناعة كبرى أو صغرى ، بل كانوا فلاحين أو حفارين في المناجم أو حمالين على الشواطئ ، جمعتهم أماكن عملهم ووحدت الشكاية ووحدة المصلحة بينهم ، فخرجوا في تلك الحركات الاجتماعية قبل عصر الصناعة الكبرى بأكثر من عشرين قرنا في الزمن القديم ونحو عشرة قرون في زمن الاسلام .

« وعملت في كل حركة من هذه الحركات الاجتماعية عواملها المشتركة التي لا بد منها في جميع العهود ، وهي عوامل الدعاية والقيادة والهزيمة أو سقوط الهيبة وظهور العجز عن تدبير الأمور من قبل الهيئة الحاكمة .

« ولا نعلم على التحقيق كيف كانت دعاية الثورة المصرية بعد عهد الأهرامات ، ولكن تفرق الدعاة والأسر في الوجه القبلى على الخصوص ، مع شيوع الشكوى بين الفلاحين قد يدل على دخيلة الدعوة التي جذبت كل فريق من الثائرين الى زعيم من زعماء الأسر وطلاب العروش .

« أما ثورة الهيلوت فالمعروف عنها كثير ، ومن هذا الذى عرف عنها أنها رزقت القيادة الحسنة على يدى أرسطومين Aristomene وأرستديمس Aristodenus وجاءتها دسائس الفتنة الخارجية من جانب الفرس مسخرين لها أناسا من الطامحين الى الملك على رأسهم القائد بوزانيوس Pausanius وأناسا من رؤساء العصابات كانوا على خطر دائم من فتك الشرطة الخفية المختصة بتعقب الأرقاء البارزين بين صفوف أبناء جلدتهم وكانت لهم خفية خاصة تترصدهم يسمونها الكربتية Krypteia وتشبه الخفية القيصرية قبل الثورة الشيوعية في نظام التجسس وحبائل الايقاع والاستطلاع .

والمعروف عن ثورة الأرقاء على رومة أكثر من المعروف عن ثورة

الأرقاء على اسبرطة ، قياسا على اشتهار الأنظمة الرومانية واشتباكها بالأمم المحيطة بها ، فلا ينظر المؤرخ في تفصيلات الحوادث التي انتهت بنشوب ثورة سبارتاكوس الا وجد فيها جميع العوامل التي تخلف هذه الثورات من الأزمات السياسية والاقتصادية الى هزائم الحروب وسقوط الهيبة الى تحريض الدعاية وامكان حشد الثائرين في صعيد واحد .

« تعاقبت الغارات على رومة من برابرة الشمال في القرن الأول قبل الميلاد ، وانقسم ولاء الجيوش الرومانية بين المشرق والمغرب وتضعضت الحكومات القنصلية أو الشبيهة بالجمهورية ومهدت الطريق لقيام سلطان الاستبداد وظهور الحاكمين بأمرهم من القادة وزعماء العشائر ، وخابت آمال المصلحين في برامج الإصلاح ، ومنها تقييد الملكية الزراعية ورسم الخطط الواسعة لتوزيع الأرض والثروة بين الملاك الكبار والصغار بالتدريج .

« وكان الاخوان طيروريوس وجايوس جراشي Gracchi قد استنفدا الحيل في اقناع العلية وأعضاء مجلس الشيوخ باعادة توزيع الأرض العامة لزيادة عدد الملاك الصغار ، واستصدر أولهما من مجلس الشيوخ قرارا بالحد الأقصى للأرض الزراعية العامة فجعله ثلثمائة فدان (سنة ١٣٣ ق.م) ثم جاء أخوه فأراد أن يتوسع في تعميم الحقوق السياسية وأنشأ طائفة من المشترعين دون طائفة الشيوخ وكل اليها الحق في محاسبة الولاة السابقين ومن اليهم من رجال الدولة ، وكانت هذه المنازعات على الحقوق السياسية والحقوق المدنية بداءة الانقسام بين طوائف العلية من سادة المجتمع الروماني القديم . واتفق هذا في الوقت الذي تتابعت فيه غارات البرابرة الشماليين على تخوم الدولة ، فكان عجز الحاميات العسكرية عن صد المغيرين حجة مقنعة سوغت للقائد جايوس ماريوس

أن ينظم الجيش بقيادته ويستغل سمعته في الحروب الأفريقية للاستئثار بالسلطة في حروب الدفاع عن تخوم الشمال ، وجر هذا الاستئثار الى انقسام الدولة بين جيش الوطن بقيادته وجيش الولايات بقيادة كرنيلوس سولا ، ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة لم تنحسم قبل انقضاء سنوات في القلاقل والفتن والأزمات ، خرج منها (سولا) منتصرا على ماريوس حوالى سنة احدى وثمانين قبل الميلاد فدانت له الدولة بالطاعة حوالى سنتين ، ولم تنقض شهور على موت سولا (سنة ٧٨ ق . م) حتى تجددت المساعي الحثيثة التى تتجه من كل جانب الى هدم النظم الجمهورية واقامة السلطان المطلق بزعامة هذا أو ذاك من القادة المتنافسين ، وفى هذه الفترة نشبت ثورة سبارتاكوس فوجدت لها أشياء من أشتات الأسرى الذين جاءت بهم حروب الرومان فى تراقية — وطن سبارتاكوس — وبلاد الغال وسائر أرجاء الدولة الواسعة ، وكان منهم أناس لحقوا بالجيش وتدربوا فيه على الأعمال الحربية وأناس آخرون من رعاة الجنوب فى ايطاليا ممن كانوا يحملون السلاح لحماية قطعانهم Latifundia ويشتبكون فى حروب كحروب العصابات كلما ضعف سلطان الحكومة القائمة . فانقاد — لسبارتاكوس — جيش كبير من المقاتلة والمصارعين بعضهم من الأرقاء وبعضهم من الشذاذ النافرين ، وتمكن من الانتصار على جيش الدولة بقليل من العناء (٧٣ ق . م) ثم هزم الجيوش التى جردت لقتاله بقيادة القناصل والولاة فى بلاد الغال ، واستشرى خطبه حتى كاد أن يحكم البلاد الايطالية فيما وراء العاصمة ، ولم تقدر عليه الحكومة بجيوشها التى تخلفت من أيام النزاع وانقسام الولاء بين القادة ، حتى تصدى للأمر رجل من رجال (سولا) الكفاة هو القائد كراسوس ، فجند لقتاله جيشا جديدا تولى تدريبه وتنظيمه على يديه ، ودارت

الدائرة على سبارتاكوس في معركة أبوليا Apulia (٧١ ق . م) .
وقد كاد أن يفلت بفلول جيشه على أسطول من السفن الصغيرة عند
مسينا . ثم تبين أن الثائرين لم يكونوا جميعا من الأرقاء المملوكين لسادة
معروفين وأحصى منهم نحو ستة آلاف لم يعرف لهم سادة يملكونهم
ولم تكن لأكثرهم سابقة في الرق ، وانما كانوا مع طائفة من الفلول
الهاريين ثوارا على الظلم والخلل وطلابا للحرية والحقوق الانسانية ..

« والمعروف عن ثورة صاحب الزنج في الدولة العباسية أكثر مما عرف
عن ثورة الأرقاء في الدولة الرومانية ، لأنها حدثت في عهد تاريخي وافر
المراجع والمآخذ قريب بالنسبة إلينا في أحواله وأوقاته ومصادر دعوته
ودعواه . وقد كانت الدعوة والدعوى معا كأوهن ما تكون الدعوات
والدعوى من السخف والتضليل ، ولكنهما فعلتا فعلهما المعهود مع
ضعف الدولة واحتشاد الثوار في مكان واحد وسهولة انتحال الحجة
التي يستند إليها الثائر على الدولة القائمة في أعنف أوقات النزاع بين
العباسيين أصحاب السلطان والعلويين أصحاب الحق في عقيدة الأكثرين
من أبناء الاقليم وما جاوره من الأقاليم .. ورواية أخبار هذه الثورة من
وجهة نظر غربية أدنى الى التناقض مع أخبار الثورات من قبيلها في تاريخ
اليونان والرومان ، ولهذا نرويها هنا كما لخصها (سير وليام موير)
Muir في كتابه عن تاريخ اضمحلال الخلافة اذ يقول من أخبار سنة
خمس وخمسين ومائتين للهجرة (٨٦٩ م) ما يلي :

ان فتنة الزنج أشاعت الذعر والفتك من حولها خمس عشرة سنة ،
وكان زعيمها فارسيا اتحل النسب الى علي بن أبي طالب ، فكان يدعو
أول الأمر بهذه الصفة الى بعض الآداب الروحية ثم ما عثم أن كشف
عن خبيثته فاذا هو متمرّد متفرض يسرى عليه لقب الخبيث . وكان يحوم

فى شبه الجزيرة العربية قبل ذلك على غير طائل ، ثم رفع راية العصيان ونادى بالحرية لجميع المستعبدين ووعدهم بما لا حد له من الأسلاب والغنائم اذا التفوا برايته . واتخذ له شعارا آية من القرآن كتبها على الراية تبطل الرق وتلغيه « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن » . . وفسر الآية بأن الله اشترى الرءوس والأموال فلا يملكها أحد ولم يكن بالمستغرب من العبيد — الذين علمهم أن يهينوا سادتهم — أن يهرعوا اليه بالألوف ومعهم أهل البادية من طلاب الأسلاب والغنائم . أما اسم الزنج فمعناه الأثيوبيون من أوشاب القارة الأفريقية ، ومن هنا نسبت اليهم الفتنة فسميت بفتنة الزنج . وكانت سنة خمس وخمسين ومائتين بداءة عصيانهم ومجاهرتهم بالقتال وتلتها سنتان انتشروا فيها بين جوانب وادى النهرين وشواطئ قزوين الى الأهواز ، فبسطوا أيديهم من ثم على هذه الأنهر وشجعهم النجاح فأغاروا فى سنة سبع وخمسين ومائتين (٨٧١ م) على البصرة واقتحموها وأعملوا فى الأهلى كل منكر وفظيعة ، ثم نادوا بالأمان غدرا فقتلوا كل من اغتر بأمانهم من جمهرة السكان المخدوعين ، وهدموا المسجد الكبير وأشعلوا النيران فى المدينة كلها . وقد راع الخليفة مقتربهم من عاصمة الخلافة فأنفذ الموفق على رأس الجيش لقتالهم ، فنشط للقتال نشاطا قويا ولكنه لم يظفر بهم الا قليلا فى المعارك الأولى لاضطراره الى وقف القتال حيناً بعد حين واشتغاله بدرء المخاطر فى مواقع أخرى من الدولة ، ولقى موسى وغيره من القادة مثل هذا الفشل سنة بعد سنة ثابر الزنج خلالها على الغارة مع ما كانوا يمنون به من الهزيمة فى بعض المعارك ، وجعلوا يغيرون على العراق وخوزستان والبحرين عصابات متفرقة أو جموعا

مصنوفة ، فنهبوا الأهواز واتخذوا (واسط) معسكرا يشنون منه حروب التخريب والتقتيل ، وانقضت على البلاد تسع عشرة سنة من الشقاء والفرع ، ثم فرغ لهم الموفق بعد الخلاص من الأعداء الخارجيين ، فوحد الجيوش تحت قيادته وقيادة ابنه المعتضد ، ودارت الدائرة من ذلك الحين على جموع الأرقاء ، فطردوا أولا من خوزستان ودفعوا الى الجانب السفلى من النهر حيث استعصموا بالمواقع الحصينة واحتسوا بالأقنية والجداول المحيطة بها ، ولا تزال أخبار المعارك التى تلت ذلك نحو خمس سنوات محفوظة تروى بتفصيلاتها المسهبة المملة ، وأجلى العدو من مواقع كثيرة ولكنه لبث بعد جلائه عن تلك المواقع ثلاث سنوات مستعصما ببعض الحصون لانقطاع الحصار فترات متوالية من جراء اصابة الموفق بجراح أقعدته عن العمل السريع ، وأخذ الثوار يتسللون زرافات زرافات الى الموفق فيقبل منهم التوبة برفق وسماحة ، وبلغ من رفقته وسماحته أنه أعلن العفو عن المسىء الأكبر فأعرض عنه هذا بصلف وقحة . ثم سقطت القلعة وعاد كثير من النساء السبايا الى ديارهن ووقع الخبيث فى الأسر وهو يمعن فى الهرب فقتل وحمل رأسه حيث رفع على مشهد من الجموع المتكوفة فخرؤا سجودا يشكرون الله على النجاة من شره .. » .

.. وتلخيص موير هذا لفنتة الزنج يصدر عن نظرة تاريخية على الحيدة بين الداعية والدولة التى يثور عليها ، فلا يمتزج بالغضب الدينى الذى يشعر به المؤرخ المسلم وهو يتكلم عن فنتة من فتن المروق والاباحة والافتراء على الحضرة النبوية ، وهى — فى رواية موير — على نسق تام مع الثورات التى من قبيلها وان تفاوتت أبعد التفاوت فى الأزمنة والأمكنة وأجناس الثوار ومطالبهم وعقائدهم التى يأخذون بها أو ينتقصون عليها .

فكلها ثورات حصلت لأنها أمكنت ، وكلها ثورات أمكنت لأنها ثورات
أناس من أصحاب الشكايات الاجتماعية أو المتنفعين بالقلقل والفوضى
حيث كانت ، تجمعوا في صعيد واحد واستضعفوا السلطان لما منى به من
الهزيمة والعجز فاستخفوا بأمر الخروج عليه ، ولا يلزم من ثوراتهم هذه
أن يكونوا من الفلاحين أو الصناع أو العاطلين ، ولا أن تتقدم ثوراتهم
أو تتأخر حسب الأطوار التي يربتها المفسرون الماديون للتاريخ » (١) .

* * *

وقد تكررت في أوائل عصر الصناعة الكبرى ظواهر اجتماعية من
قبيل ما سلف ف تكررت فيها الثورات التي تفرقت في أنحاء الزمن
ولم يختص بها عهد من العهود ، ولوحظ في كل ظاهرة منها تكررت حديثا
أنها تأتي في أول أطوار الصناعة الكبرى كأنها مفاجأة غير مألوفة تعترى
المجتمعات التي لم تنهياً لتوسيع مجال الصناعة والتوفيق بينها وبين
مرافقها ومصادر ثروتها ، فهي عرض من أعراض المفاجأة وليست نتيجة
خاصة مدخرة للصناعة الكبرى في آخر أطوارها ، ولا هي من الطوارئ
المعلقة وراء حجاب الزمن الى أن يحين حينها وتدور بها أدوارها .

أما الثابت من مراقبة الحوادث بعد تمكن الصناعة الكبرى التي
استوفت أطوارها فهو الاستقرار الذي تقل فيه المفاجآت ويقل فيه
انتظارها وتوقعها ، لأن زيادة الثروة من اتساع مجال الصناعة الكبرى
تصاحبه كثرة المالكين وكثرة أنواع الأعمال وكثرة الروابط التي تقضي
بالتضامن بين أعضاء المجتمع الواحد في المنافع والأضرار .

وسوف يتسع مجال الصناعة الكبرى فوق اتساعه في هذه السنوات
الوسطى من القرن العشرين ، وقد يقصر المدى قبل نهايته دون استقامة

(١) من كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف من فصل « اتباع المذهب »

هذا المجال في أرجاء العالم ، ولكن الأوضاع التي يبلغها التطور قبل نهايته كافية لتصحيح الآراء عن علاقة التطور الصناعي بنهاية الطبقات ، جدرة بتعليم الناس أن العاقبة للتعاون بين طبقات المجتمع الواحد ، وان الاستقرار والحرية مفقودان حيث تسطو فئة من المجتمع على سائر فئاته ، رهينان بتعدد الطبقات وتعدد الكفايات وتعدد أنواع الأعمال ، ومن هذا التعدد يخلق الترياق الواقى من الأثرة والطغيان ، فانهما خرق لنظام الحياة العامة لا يستطيع ولا يحتاج اليه حيث تتقارب الأقدار والحقوق وتتداخل المصالح والعلاقات .

١٠ - الأسرة والمرأة

بدأت قضية المرأة على حق يشوبه الغلط ، ولم يكن لها بد من البدء على الحق المشوب بالغلط والا تأخرت ، أو جمدت ، فلم تبدأ على وجه من الوجوه .

بدأت في معمة المطالبة بالحقوق : رعايا يطلبون حقوقهم من ملوكهم ، وعبيد يطلبون حقوقهم من ساداتهم ، وأجراء يطلبون حقوقهم من أصحاب الأموال ، وشعوب مغلوبة تطلب حقوقها من شعوب غالبية ، بل أبناء يطلبون حقوقهم من الآباء ، وعباد يطلبون حقوقهم من المعبود .

فلما جاء دور المرأة في هذه المعمة كانت مطالبتها بحقوقها خصومة جديدة في معترك الخصومات الكثيرة ، خصومة مع الرجل أو خصومة بين الجنسين ، وهذا هو موضع الغلط في قضيتها التي بدأت على حق لا ينكره ولا يجدى نكرانه بعد الانتباه إليه ، وكثيرا ما يتدىء الانتباه إليه من الرجال قبل النساء .

فمن الحق أن المرأة كانت مظلومة مسخرة قبل عصور المعرفة والحرية ، ولكن الغلط في وضع قضيتها أن يكون هذا الظلم خصومة بينها وبين الرجل ، أو خصومة بين الجنسين . فان الجنسين معا كانا ضحية لعدو واحد لم يعرفاه الا على مهل وبعد ضلال بعيد عنه وعن منافذ الخلاص منه .

كان الرجل ضحية جهله يوم كانت المرأة ضحية جهلها وجهله . وكان الرجل مظلوما يوم كانت المرأة مظلومة ، وكانت مسئولة مثله عن هذا الظلم — أو غير مسئولة — فهما على الحالين مستويان .

وكان كل ما تشكوه المرأة من مساوئ الاجتماع يشكوه الرجل مع اختلاف في الدرجة واختلاف في القدرة على الشكاية ، وربما صمتت الشكاية باختيار متفق عليه بين الرجال والنساء . وقد يقف الرجال والنساء معا في حظيرة الاتهام أمام ضحية أخرى لا هى بالخصم ولا هى بالطرف المعقول في موقف من مواقف الخصومة ، وتلك هى ضجة الطفولة المظلومة من البنين والبنات ، قبل أن يصبحوا مع الزمن رجالا ونساء وآباء وأمهات .

فما من شك في ظلم الطفولة يوم كان الرجال مظلومين والنساء مظلومات ، وما من شك كذلك في مصاب الجميع بجرائر هذا الظلم : مصاب الظالمين والمظلومين .

كم ظلمت الأم في العصور الغابرة من وليد تحبه ووليدة تحبها ؟ وكم ضاع هذا الظلم بين تبعة لا تعرف وتبعة تعرف على جهل وضلالة ؟ ومن المسئول عن الجهل والضلالة ؟ ... قل على حد سواء انهم البنون والبنات ، كما تقول انهم الآباء والأمهات ، أو تقول انهم الرجال والنساء .

فاذا قيل ان قضية « تحرير المرأة » قضية حق في نشأتها ، فذلك صدق لا جدال فيه . ولكنها توضع موضع الغلط حين يقال انها قضية خصومة بينها وبين الرجل ، وان الفصل فيها انما هو انتصار طالب على مطلوب ، أو صلح بين ضدين يكسب أحدهما بمقدار ما يخسر غريمه في هذه المقاضاة .

انما توضع قضية المرأة في موضعها الصحيح يوم يقضى فيها على أنها علاقة بين شريكين يتوزع بينهما العمل على حسب اختلاف الوظيفة والاستعداد ، وكلاهما خاسر مغبون اذا أخل بحق شريكه ونازعه في عمله

وكفايته ، وكلاهما رابح اذا عرف أين يعطى وأين يأخذ من قسمة الخلق بين الجنسين .

ليس في الطبيعة ظاهرة محسوسة يتجلى فيها توزيع العمل وتتمثل فيها هذه الشركة كما نراها في المقابلة بين وظائف الجنسين ، فكل مخلوق انساني انما هو شاهد في تكوينه على هذه الوظائف المتقابلة في تركيب بنية الذكر وبنية الأنثى ، ومن ضحالة الفهم أن يسبق الى الظن أن هذا التقابل في تركيب الجنسين ينتهى عند أعضاء الجسد ولا يستدعى معه تقابلا في استعداد العاطفة والفكر والبدية الخفية التى نحسها أحيانا وتحتجب عن الحس أحيانا أخرى ، لعلها أعمق وأقوى مما ندركه نحن — رجالا ونساء — من هذه المحسوسات .

والمسألة — بعد — ينبغى أن تخرج من أفق التنازع على الحقوق والكفايات الى أفقها الذى تدور فيه الى مستقرها ، كيفما كان القرار . ومن الغلو فى الأمل أن تترقب حلها فى البقية الباقية من القرن العشرين ، ولكننا نتحدث عن أمل قريب — ان لم يكن أملا محققا فيما نراه اليوم — اذا رجونا أن توضع قضية المرأة موضعها الصحيح بعد جيل أو جيلين ، فينقضى الدور الذى بدأ بالخصومة بين المرأة والرجل ، ويتبعه دور يعملان فيه عمل الشريكين اللذين يتقاسمان الواجب كما يتقاسمان الحق ، ويحذران الخسارة لأنها خسارة فى الحصتين .

* * *

ولا شك أن حالة الأسرة أدل من حالة الطبقة على نصيب المجتمع من السلامة والاستقامة . اذ كنا نطلع من حالة الطبقة على أوضاع اجتماعية واقتصادية قلما تتخطاها الى ما وراءها الا على سبيل الاستطراد ، فى حين أننا نستلهم من حالة الأسرة حكمة الطبيعة فى تقسيم الجنسين ونهتدى

منها الى أخلاق الفرد والجماعة ونستشف منها بدهاة النوع في احتياله للمحافظة على بقاءه ونموه ، ولا يفوتنا حين نطلع على تكوين الأسرة أن نلم بأحوال المجتمع في علاقاته الاقتصادية والسياسية .

ونحن نستلهم حكمة الطبيعة فنعلم أن المجتمع يتعد من السلامة والاستقامة كلما ابتعد بالمرأة عن الأسرة ونحى بينها وبين وظيفة الأمومة وتربية الجيل المقبل وتدير البيت لتسكن اليه وتسكن اليه الأسرة مؤثلا للعطف والراحة من تكاليف السعى والمعيشة .

وليس مدار البحث هنا أن نعلم مدى الحقوق السياسية التي تنالها المرأة في أمتها ، ولا عدد الوظائف التي تشغلها والدراسات العلمية التي تتلقاها ومراكز الأعمال العامة التي تتولاها . فأننا لا نواجه خطرا مقبلا اذا استغنت المرأة عن هذه الأعمال ولا يثود المجتمع أن يولى الرجل كل ما تتخلى عنه المرأة يوم تكتفى بوظيفة الأم وسياسة الأسرة في الحياة البيتية .

ولكننا نواجه الخطر المحقق اذا تخلت المرأة عن حياة الأسرة ولوازمها ، ونبتعد عن حكمة الطبيعة فنفهم أن المرأة والرجل كليهما يعملان في مجتمع بعيد من السلامة والاستقامة ، وينبغي أن نتوخى في الاصلاح الاجتماعى رد المجتمع اليهما وتثييط الدوافع التي تحفز الناس - نساء ورجالا - الى الشطط عن سواء الطبع في توزيع الأعمال بين الجنسين .

ومن اللجاجة أن تنقلب هذه المسألة الحيوية الى منازعة على كفاءة الجنسين في شئون العلم والعمل . فالأمر الذى لا منازعة فيه أن المرأة خلقت للأمومة وصلحت لتربية عواطف الأسرة ، فلا يحسن بالمجتمع أن يضطرها الى التخلى عن مكانها في الأسرة ، وأن يلجئها الى التضحية

بالبیت سعیا الى الرزق أو اشتغالا بأعمال یغنی فیها الرجل عنها .
ولیس لنا أن نتجاهل الحقيقة الواقعة وننسى أن المرأة تضطر فی
الحضارة الحديثة اضطرارا الى هجر البیت والتضحية بلوازم الأسرة فی
سبیل لوازم المعیشة . الا أن الحذر من تجاهل هذه الحقيقة لا یوجب
علینا أن نغتبط بها ونقیم قواعد المستقبل علیها ، وانما نعترف بها لنعطیها
حقها من معاذیرها واعتباراتھا ، ونسعى الى اصلاحھا وتشیط الدوافع
التي تضطر النساء والرجال لیھا .

وقدیمما اضطر الفقراء — و غیر الفقراء — الى تسخیر القاصرین
واهمال تعلیمهم فی سن الطفولة الباکرة فیما یشق علیهم ویضر بأجسامهم
وعقولهم ایثارا للاتفافاع بأجورهم على احتمال نفقتهم ، فلم نجعل هذه
الضرورة قاعدة تقام علیها تربیتهم وتفریج الضائقة عن ذویهم ، واعترافنا
بهذه الحقيقة لنصلحھا ونغنی المضطربین الى تسخیر أبنائهم عن هذه
السخرة الشائنة ، فاستغنی عنها الكثیرون منهم وأنفوا منها بضائرتهم
وقلوبهم بعد أن تعودوا مع الزمن أن یتجنبوها خوفا من العقوبة وطاعة
للشريعة .

ولا یدو الآن أن الضرورات التي تصرف المرأة عن حياة الأسرة یمکن
أن تعالج بهذه السهولة فی الجيل الذی نحن فیہ ، وأکبر الظن أنها
تستعصى على العلاج فی الجيل المقبل أو الذی یلیه ، ولكننا نأمل فلا نفلو
فی الأمل أن یتکفل القرن العشرون قبل انتهائه بوضع هذه القضية الجلی
فی موضعها الأمین ، فیختتم صفحة الخلاف علیها كأنها خصومة بین الرجل
والمرأة ، ویترکھا للأجیال المقبلة شركة یتعاون فیھا الجنسان كما یتعاون
الزمیلان .

١١ - الفن والعلم

ولعلنا نختم هذه الظنون والنبوءات بخبر من أخبار المستقبل لا حاجة به الى ظن ولا نبوءة ، وقد يكون أوثق من أخبار الماضى الذى تتضارب فيه الرواية .

ان القرن العشرين سوف يصفى قبل نهايته حساب البدع الفنية التى نشأت فيه ، وهذا هو الخبر الذى لا يحتاج الى الظن والنبوءة . اذ تحمل البدعة فى طياتها نبوءة مصيرها ، وتأتى البدعة ثم تمضى كما تأتى أزياء الثياب والحلى زيا بعد زى ثم تمضى باختيار من يبدعونها ويولعون بها ، ولولا هذا القلب السريع لما فكر أحد فى ابتداعها .

وقد كانت ذخيرة القرن العشرين من بدع الفنون أوفر وأعجب من ذخيرة سلفه القرن التاسع عشر ، ومن ذخائر أسلافه فى العصور الحديثة التى أولع فيها الناس بالجديد ثم ازدادت سرعتهم فى تغييره والتبرم به الى أن بلغت شأوها الأخير فى هذه السنوات الأخيرة ..

ويرجع الاقبال على البدع فى القرن العشرين الى جميع أسبابه التى تغرى به وتحرض عليه : الى الجرأة على التقاليد المرعية ، وإلى شيوع الطرافات العلمية التى يتداولها الفنانون وجمهرة المتحدثين بالعلوم والفنون ، وإلى اتساع ميادين النشر من طباعة وإذاعة وصور متحركة ومسارح عرض وتمثيل .

والجرأة على التقاليد المرعية قديمة منذ عصر النهضة وعصر الاستنارة وما تلاهما من عصور الثورات العلمية والسياسية . الا أن الجرأة على التقاليد كانت تصدر فيما مضى من جانب واحد باسم المجددين الثائرين

على المحافظين ، أو باسم اليسار المنتقض على اليمين ، فلما تقدم القرن العشرون جاءت الغارة على التقاليد شعواء ذات اليسار وذات اليمين . فأنصار الدعوة الاجتماعية من الماديين يحطمون التقاليد الماضية لأنهم يهدمون كل بناء قام في الماضي على قواعد الطبقات من غير طبقة الأجراء ، وأنصار الدعوة الفردية ينكرون طغيان الجماعة على حرية الفرد فيعارضون الدعوات الاجتماعية التي تلغى الفرد من أجل الجماعة ، ولكنهم — على مذهب بعض الوجوديين — يبيحون للفرد أن يستقل برأيه وهواه ويثبت وجوده بالخروج على العرف واقتحام الطريق الذي يروقه على غير اكتراث بالأصول والعادات في مسائل الذوق على الخصوص ومنها الفنون .

أما شيوع الطرافات العلمية فهو فيما نعنيه هنا شيء غير شيوع المباحث العلمية التي يحصها العلماء ويمتحنونها على أصول التجربة والتطبيق الأمين . فهذه المباحث العلمية تفيد الفن والفنان وتؤدي الى قيام المدارس الفنية التي تثبت في تاريخ العلم والثقافة ولا تظهر ثم تغيب كما تغيب البدع والأزياء .

ان الطرافات العلمية شيء غير هذه المباحث والدراسات . فأنها لا تعدو القشور التي تستهوى النظر العاجل ويتخطفها المتندرون في الأندية لما فيها من غرابة تجرى في نسق واحد مع غرابة الأقاصيص والبدوات ، ومنها ما يحسن فهمه ويساء تطبيقه لسوء التمييز بين موضوع العلم وموضوع الفن ، وبين مسائل التفكير ومسائل الشعور والخيال . وأشهر هذه التطبيقات الخاطئة في بدع الفنون دعوة المدرسة الطبيعية في القرن التاسع عشر Naturalism وهي من أصح المدارس الأدبية في نظرتها وأسرعها إلى الخطأ في تطبيقاتها لسوء التمييز بين أساليب العام وأساليب الآداب .

كان مبعث هذه الدعوة أن أصحابها أرادوا أن يميزوا أنفسهم على غيرهم من الكتاب والشعراء بالتزام الأمانة العلمية في وصف أحوال الناس والتعبير عن عواطفهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، وقالوا ان الكاتب ينبغي أن يتجرد من أهوائه وآرائه عند الكتابة كما يفعل العالم عند دراسة الظواهر الطبيعية ، وان تعبيره عن الحقائق الاجتماعية والنفسية ينبغي أن يصاغ في قالب كقالب التعبير العلمي أو قالب المسائل الرياضية . ومن الحسن ولا شك أن يلتزم الكاتب أمانة العلم اذا كان المقصود بهذه الأمانة أن يتجنب الزخرف الكاذب والأباطيل الخرافية . ولكنه لا يكون أميناً بمعنى الأمانة العلمية ولا الفنية اذا عبر عن نفسه تعبيراً آلياً يتجرد من الملامح الشخصية ، لأن الفن كله قائم على وجهة نظر الفنان وملكاته الشخصية التي لا تتشابه بين كاتب وكاتب ولا بين شاعر وشاعر ولا بين مصور ومصور ، ولا تأتي مقرراتها متشابهة أبداً كما تتشابه مقررات العلماء ، ولهذا كانت الصورة اليدوية مفضلة على الصورة الشمسية بالغة ما بلغت هذه من الصدق والاتقان . ولو كان المقصود بالأمانة العلمية مطابقة الصورة لأصولها المحسوسة لكانت الصورة الشمسية أرفع شأنًا من كل صورة تبدعها ريشة الفنان الصانع . ولكن الأمانة العلمية في الفنون شيء غير الأمانة الآلية ، لأن العلم يقول لنا ان الآلة غير الانسان ، فلا يجوز لنا أن نتنظر — باسم العلم — تصويرا انسانيا يشبه صناعة الآلات ، ولا تتحقق أمانة العلم وأمانة الفن معا بغير هذا الاختلاف ، بل يصدق هذا على الفرق بين الصورة الشمسية الممتازة والصورة الشمسية المجردة من المزية . فاننا اذا أعجبنا صورة شمسية بارعة لمسنا على الأثر براعة المصور الذي التقطها في اختيار الموقع واختيار الوجهة واختيار الألوان والظلال واختيار اللحظات

البادية على الوجوه وعلى صفحات الأشياء .

ومن الواجب أن نفهم معنى الأمانة العلمية حين نطبقها على بدائع الفنون . فهي لا توصف بوصف الأمانة الا اذا حسبت حسابا للفارق بين عمل الآلة وعمل الانسان .

ويهون سوء التطبيق في الدعوة الى المدرسة الطبيعية اذا قيس الى التطبيقات السيئة التي ابتليت بها دراسات علم النفس بين الحريين العالميتين ، فتسربت الى الفنون والآداب من كلمات الوعي الباطن ومركبات النقص والعقد النفسية وما شابهها من مصطلحات فقدت معناها لكثرة استعمالها في غير مواضعها ، وخلقت من أفانين الأوهام ما لم تخلقه خرافة من الخرافات التي ماتت قبل أن تبلغ القرن العشرين .

وقد نسي دعاة البدع التي نبتت من كلمة الوعي الباطن أن هذا الوعي الباطن لم يخترعه فرويد ولم يزعم أن الفنانين من قبله جهلوه وأهملوه ، بل قرر غير مرة أنه يعتمد في تفسيره على أعمال أولئك الفنانين وأقوالهم من كتاب وشعراء ومصورين ، وما من أحد ذى بصر ينظر الى صورة من صور الأقدمين ومن تلاهم في عصر النهضة وتلاميذهم المبرزين من أبناء العصور الحديثة الا أدرك لأول وهلة أنهم أحسوا الوعي الباطن من وراء الظواهر وعرضوه لنا على قسماات الوجه وحركات الأعضاء ، ودلوا على قدرتهم بهذا العرض الذي يرينا الخفايا كما يرينا الظواهر بلمسة من لمسات الريشة وخفقة من خفقات النور واللون ، وتركوه لنا نفسره كما يفسر كل سر من أسرار النفس البشرية قد ينطوى عن صاحبه كما ينطوى عن الناظرين اليه ، ولذلك كان وعيا باطنا ينقله الفنان التقدير على غموضه أو جلالة ثقل الأمانة الملهمة والادراك الخفى والحس المشترك بين الموضوح والغموض ..

وينسى هواة الطرائف العلمية أن علماء النفس لم يكشفوا الوعى الباطن ليلغوا به الوعى الظاهر ويبتلوا به عمل الحواس . لأن معرفتنا بعقولنا الخفية لا تمنعنا أن ننظر بأعيننا ونسمع بأذاننا بل تساعدنا على محو الضلالة والتثبت من حقائق المنظور والمسموع .

والمصورون ممن يدعون تصوير الوعى الباطن ينسون أنهم تعلموا فن الرسم والشكل ولم يتعلموا الكهانة والتنجيم ، ولو كان فنههم كله قائما على تخمين الظنون عن العقل الباطن لتساوى المصورون وغير المصورين ، وتساوى كذلك الشعراء وغير الشعراء والفنانون وغير الفنانين فيما يتعاطونه من الوصف والتعبير . اذ كان التخمين عملا نستطيعه جميعا ولا يتقاضانا غير الحدس والاسترسال مع الخيالات ، ولا يصح أن يستأثر فيه صاحب وعى بما يتوهمه دون أصحاب الوعى من الناظرين والفنانين . فقد يتفق عشرات الألوف فى البصر والسمع ولا يتفق اثنان فى الخفايا الباطنة ولو كانا أخوين أو عشرين مدى الحياة . وما دام الوعى الباطن مختلطا مرتبكا غير مشهود ولا مفهوم فليس فى الدنيا من يعجز عن محاكاة الاختلاط والارتباك على نحو من الأنحاء .

ومن فكاهات هذه الدعوات أن المنتحلين لها يتخطفون أطرافها على عجل ثم ينقطعون عنها ولا يعرفون ما طرأ عليها فى مباحث أصحابها الأولين وروادها المبكرين . فقد عدل فرويد فى أيامه الأخيرة عن مغالاته بدعوى الوعى الباطن أو العقل الباطن ورأى أن العبارة فى تركيبها متناقضة لا تستقيم فى التفكير . فليس بالعقل شئ لا نعقله ولا بد من تعبير أصح من هذا التعبير للدلالة على الفوارق بين طبقات السريرة الانسانية من أعماقها المستورة الى ظواهرها المكشوفة ، ولهذا أهمل فرويد مصطلحات

الوعى الباطن واللاوعى وما إليها في أخريات أيامه واستبدل بها
ال (ايد Id) أو الطوية وال (ايجو Ego) أو الذات وال
(سوبر ايجو Super-Ego) أو الذات العليا ، ولم يفصل بين دوافع
هذه القوى الثلاث الا في حالات المرض والاختلال أو حالات الارتباك
التي تعترى الأصحاب في حالات الكرب والشدة فلا يستقر لهم قرار
الى أن تزول . وقد تراجعت مصطلحات فرويد الأولى الى الصفوف
التالية في مباحثه الأخيرة ولما تزل تشغل الصفوف الأولى في أعمال
القنانين الذين تلقفوها بالسماع ولم يفهموا منها أولا وآخرها غير ما فهمه
ثلاثة الأسماء ..

* * *

ومن المؤلف أن تعزى كثرة الخوض في النفسانيات بين الحريين
العالميتين الى قلق الأفكار وتوتر الأعصاب في هذه الفترة من جراء
الأزمات والشكوك التي تنتاب أبناء العصر فترهقهم وتلجئهم الى التنفيس
عن صدورهم بهذه الأحاديث كما تلجئ العلماء والمفكرين الى البحث
في أعراضها ووسائل علاجها . ويشبه أن يكون هذا هو الواقع في تحليل
كثرة الخوض في العوارض النفسية ، لولا ما نعهده من أخطائنا المتكررة
عند المقارنة بين الحاضر والماضى في مسائل الشعور والعاطفة ، فما حضر
أشد عندنا مما غبر في مسائل الحر والبرد ومسائل السرور والألم ومسائل
العافية والمرض ، ولا يبعد أن تكون أزمات القرن التاسع عشر أشد
وقعا على أبنائه من أزمات المحدثين بين الحريين العالميتين ، لأنه لم يخل
من قلقه وشكوكه وثوراته وحروبه ومفاجآته وصدمات الخيبة
لأصحاب الآمال العامة والخاصة من أبنائه ، فاذا كانت أحاديث العقد
النفسية لم تتردد في فنون القرن التاسع عشر كما ترددت في فنون القرن

العشرين فليس من المحتم أن يرجع ذلك الى ندرة الأزمات النفسية فيما مضى وكثرتها فيما حضر ، بل يجوز أن كثرة الحديث عنها انما ظهرت مع ظهور العلوم النفسية تبعا لتقدم العلوم في جملتها ، وانها وجدت متسعا من ميادين النشر وحرية التصريح بالآراء في الزمن الأخير لم تجده في أول عهدها بالظهور قبل بضعة أجيال .

وقد مضى الآن على ابتداء اللهج بالعلل النفسية أكثر من جيل كامل وضحت فيه مصادر هذا اللهج الطارىء من أعمال الفنانين وأعمال أدعياء الفنون ، فلم يعسر على نقادهم أن يميزوا بين سمينهم وغثهم وبين الجذ والهزل في أعمالهم وأقوالهم . فهم بين طائفتين تتميزان جدا بعد هذه السنين التي عرضت لنا من ثمراتهم ما يكفى لمعرفة طائفة جادة في شعورها وتعبيرها تصور لنا دخائل النفوس وعللها كما يصورها الفنان الملهم في كل آونة ، وطائفة مصطنعة متكلفة تعرض لنا فنا مصطنعا متكلفا هو نفسه عرض من أعراض الأمراض النفسية . والفرق بين الطائفتين هو الفرق بين المعبر عن المرض وبين المصاب بالمرض الذى تفهم مرضه من حالته ولا تفهمه من مبتكراته وأقاويله . ولا يشق على نقاد الفن أن يدلونا على الآية التي تميز كلا من الطائفتين تسييرا يدفع اللبس والاشتباه . فكل نتاج فنى يلغى القواعد وينطلق مع الفوضى فهو ظاهرة مرضية وبدعة موقوتة لا تدوم الا ريثما تنسخها بدعة من قبيلها ، وكل نتاج فنى يقوم على قاعدة مفهومة فهو تعبير صحيح وان جاءت هذه القاعدة على نسق جديد يخالف ما اطردت عليه فنون الأقدمين . ولا بد من التفرقة بين القواعد والقيود في الأعمال الفنية على اختلافها . فان القواعد هي قوام الفن الذى لا ينفصل عنه ولا يمكن أن يخلو منه بحال . وما عرف الناس لعبة من لعب الكبار والصغار — فضلا عن الفنون العليا — يمكن

أن تلعب بغير قاعدة مرعية عند الطرفين ويجوز للاعب أن يتحرك فيها بغير ضابط معلوم ولا خطة مقررة . فلا قوام للفن بغير القاعدة ، ولكنه قد يقوم على أحسنه مع زوال القيود التي يحده بها العرف ويتناولها التغيير والتبديل في كل جيل .

ولم يمض على ظهور البدع الفنية — بدع الفوضى والاباحة — بضع سنوات بعد الفترة بين الحريين حتى أمكن التمييز بينها وبين الفنون المعبرة بوحى الالهام والبداهة الصادقة . فمن البدع الزائلة كل دعوة تنم عن المرض النفساني كما تنم عليه أعراضه وأماراته ، ومن الفنون الصادقة كل فن يعبر عن المرض وهو غير مريض ، وينفس عنه وليس هو بضحية من ضحاياه . ولكل منها علاقة بالدراسات النفسية غير علاقة الآخر بها . فإن البدع لا تستفيد من الدراسات النفسية ولا تتعلم شيئا منها ، ومثلها في علاقتها بحقائق علم النفس مثل المريض في علاقته بالطب الذي لا يعرفه . وعلى خلاف ذلك يكون الفن الصادق في علاقته بالدراسات النفسية ، فانه يستفيد من العلم بها ويصحح بها أخطاء الحس والرأى والشعور ، ويعتمدها في نقد أعمال الأقدمين وتوجيه أعمال المحدثين .

* * *

منذ أواخر القرن الماضي بدأت مشاركة العلم في نقد تاريخ الفنون ولا سيما فنون التصوير والنحت والمخطوطات الكتابية . فتمكن علماء التاريخ والكيمياء من تحقيق أوقات التحف الفنية وتصحيح نسبتها الى أصحابها وعهودها ، اما بالمقابلة التاريخية بين الأساليب والتوقعات وأنواع الورق والمداد ، أو بالفحص الكيى عن التفاعل بين الأصباغ والأنسجة وبين عوارض الجو والتربة ، وكانت لهذه المساهمة العلمية

قيمتها النفسية في التحقيق والتمحيص من الوجهة التاريخية التي تنتهي عند تصحيح النسبة الى هذا الفنان أو ذاك وتبيين الفرق بين أساليب عصر وعصر وأنماط مدرسة ومدرسة . ولكن النقد العلمى لم يتمكن من المشاركة في التمييز بين الفن السليم والفن السقيم وبين أسباب الدقة في الأداء وأسباب الخطأ والانحراف فيه الا بعد التقدم الحثيث في علم البصريات وما يرتبط به من طب العيون والأعصاب . فان علماء البصريات وأطباء العيون قد أمكنهم أن يميزوا بين الخصائص التي كانت تحسب في عداد المدارس والأساليب الفنية وبين الخصائص التي تنشأ من أمراض البصر ويضطر اليها الفنان لخلل في تركيب عينه يحجب عنه بعض الألوان أو يعرضه لطول البصر أو قصره أو للزيغ عن النظر المستقيم الى ما يواجهه من أمامه ، ففي هذه الحالات يبالغ الفنان في توكيد لون من الألوان وتخفيف ما عداه ، وتترأى صورة أقرب الى الاستطالة أو أقرب الى الاستدارة ، وفيها بعض الميل من جانب وبعض الاقحام من جانب آخر ، على حسب الاختلاف بين تركيب عينيه وبين تركيب العيون عند صاحب النظر السليم . وكان النقاد الأسبقون ينظرون في هذه الخصائص فيحسبونها من بدع الاختيار والابتكار ومن فوارق الأساليب المقصودة والمدارس التي يدور البحث فيها على تعدد الآراء والأذواق ، وما هي الا نظرة فاحصة من عالم البصريات حتى ينجلي له أن الأمر لا يرجع الى اختلاف الآراء والمذاهب ولا الى الرغبة والاختيار ، وان مرجعه كله الى عيب في البصر يمثل الأشياء لصاحبه على صورة غير سوية ويوقعه في ذلك الخطأ الذي لا حيلة له فيه . وقد يظهر من المقابلة بين صور الفنان الواحد أن بعضها ينم على انبساط الحدقة وبعضها ينم على بصر سليم ، فيتبين من النقد التاريخي أنه يحاكي أسلوب غيره في الصور المثالية أو

الصور المقدسة لأن ذلك الأسلوب قد أصبح في زمانه بمثابة الزى المصطلح عليه لتمثيل « الشخص » المحوطة بهالة من القداسة والرعاية المثالية ، ولكنه يثوب الى بصره فيعتمد عليه فيما يرسمه من المناظر اليومية والشخص التي لا يحيطها بتلك الهالة من القداسة والتبجيل ، وهذه وسيلة من وسائل التمييز بين الأنماط والأساليب وبين أسباب الاختيار فيها والاضطرار لم تكن معروفة قبل ارتقاء علم البصريات وأدوات الفحص عن وقع المسافات والمرئيات في النظر المنحرف والنظر السليم .

ويؤخذ من بحث لطبيب جراح من أطباء العيون أن نسبة الحسر في طلاب التصوير أكبر من النسبة العامة بين غير المصورين : « ففى احصاء للتلاميذ والأساتذة في مدرسة الفنون الجميلة بباريس عند أوائل القرن العشرين ظهر أن المصايين بالحسر أكثر من ستين من مائة وثمانية وعشرين ، وإن نسبة طول البصر في المدرسة كلها سبعة وعشرون في المائة ، على حين أن نسبتهم في عموم الناس ثلاثة أمثال المصايين بالانحسار » . قال الطبيب : « ومما يدعو الى الدهشة كثرة المصايين بالحسر بين أساتذة المدرسة التأثرية أو الاحساسية Impressionists فمن المرجح أن مونييه Monet كان محسورا ، ولكن الحسر محقق عند سيزان Cezanne وديجاس Degas ومفهوم على وجه يكاد أن يكون أكيدا عند رينوار Renoir الذى يحكى فولار Vollard أنه كان في الرابعة والستين يقرب الأشياء من بصره ليتثبت منها وهى السن التى لا يستطيع غير المحصورين أن يتثبتوا فيها من رؤية قريبة بغير نظارة محدبة . وقد كان بيسارو Pissaro محسورا أيضا مع اضطراب في القرنية أصيب به في طفولته من أثر القروح . وكذلك كان ديران Derain وبراك Braque وماتيس

Matisse ودوفى Dufy ودع عنك الآخرين ممن لا يبلغون مبلغ هؤلاء في الشهرة من أمثال ماتيجكو البولوني Matejko الذى حفظت نظاراته في متحف كراكاو Cracow « (١) .

مثل هذا النقد العلمى — وان شئنا فلنسمه بالكشف الطبى — يرد أخطاء الفنون الى عللها الأصلية ويلم شعث الأفكار المهذرة في مناقشات لا طائل لها بين النقاد حول أمور يحسبونها مذاهب مقصودة وهى من ضرورات النقص والخلل التى لا حيلة للفنان فيها ، ومنهم من يستنبط من الهباء فلسفة خاوية عن معنى تفضيل هذا اللون وإهمال ذلك اللون في لوحات بعض المصورين ، وقد يبحثون أسرار التشبيهات في قصائد الشعراء على هذه الوتيرة فيذهبون بها الى ما وراء الطبيعة وينحلونها من المقاصد والتأويلات ما لم يخطر لناظميها على بال ، فاذا اشترك النقد العلمى والنقد الفنى في تحليل تلك التشبيهات فأول ما يجنى من ذلك أن تصان أوقات الناس وأذواقهم من التخبط على غير جدوى في تيه من الأوهام والأضاليل ، اذ تتكشف علل الأخطاء الفنية والأدبية فيتقبلها من وافقته على علالاتها أو يرفضها ويتنبه لأسباب رفضها فينظر في مداواتها بما يصلحها ويشفيها .

والعلوم النفسية لم تتقرر بعد في تحقيق العلة والعلاج كما تقررت علوم البصريات ومباحث الكيمياء والطبيعة ، ولا نخالها ستبلغ في يوم من الأيام هذا المبلغ من اليقين والوضوح ولكنها — على ما هى عليه الآن — كفيلة بالتمييز بين البدع السقيمة والمذاهب الجدية في مدارس الفن والأدب ، فكل ما هو انطلاق بغير قاعدة ، واختلاط بغير بنية ، وإساءة للفهم في تفسير المبادئ العلمية — فهو من العلة والسقم ، وكل

(١) نشر هذا البحث في مجلة ليسنر Listener بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٥٦

ما يقام على قاعدة مفهومة — ولو أقيم على قاعدة مهدومة من قبل —
فهو مذهب من مذاهب التحديد يضيف الى ثروة الفن والأدب ويصلح
للبقاء الى حين .

وستغنم الانسانية كثيرا من هذا الفيصل الصادق بين أعراض السقم
في الآداب والفنون وما ينشأ فيها من المذاهب المطبوعة والمدارس الجديدة .
فما من شيء أضر بالأذواق والعقول من أن تساق اليهم أعراض المرض كأنها فتح
من فتوح التقدم يتهافتون عليه ويروضون أذواقهم وعقولهم على محاكاته ،
وشر ما يتلى به مريض النفس والذوق أن يفتبط بدائه ويتمادى في
تمكينه ، وهو — لولا ذلك — خليق أن يأسف له ويبحث عن دوائه .
ونحن منذ اليوم نحس أن غواية البدع السقيمة تنهزم سنة بعد سنة أمام
حقائق العلم ودراسات الطبائع والأخلاق . فاذا انتهت كشوف القرن
العشرين في هذا الباب بالتمييز بين فوضى الفن وقواعده فأنعم به من
ختام لا تنقضى حسناته ومزاياه .

obeikandi.com

خاتمة في بسطور

obeyikandl.com

١٢ — خاتمة في سطور

إذا أخذنا بالمقدمات التي رتبها الثقات في احصاءاتهم وآرائهم — وهي جديرة أن يؤخذ بها — فنحن أمام نتيجة منتظرة نلمحها من وراء السنين عند نهاية القرن العشرين وبعد القرن العشرين ، ولا نقول اننا أمام أمل مشروع وحسب ، فان الأمر هنا الى الحساب أقرب منه الى الرجاء .

وزبدة هذه النتيجة في سطور : ان موارد العالم كافية لسكانه ، وان التكافؤ بين عدد السكان ومقادير المؤن والازواد مستطاع بفضل التقدم في العلم والصناعة وأحوال الاجتماع ، تعترضه عقبات قابلة للتذليل الا أن تكون عقبة الحرب العالمية التي يخشى أن تعاجل العالم قبل استيفاء مطالبه من التقدم والكفاية فلا يؤمن أن تطيح بجميع ما وعاه من حضاراته الماضية ومن حضاراته الصناعية القائمة أو المرجوة . ولا عصمة للانسان من تلك الحرب المحظورة الا أنها — كما يعلم — أخطر الأحوال التي يخشاها ، وانها الهول الذي لا يخشى بعده هول ولا يبقى بعده من يخشى .

فاذا انتفع بهذه العصمة فالعالم ماض في طريق الصلاح والأمان : تتعاون أممه وأجناسه ويبطل النزاع بين الطبقات في الأمة الواحدة ، وتثول « الشخصية الانسانية » مع تعاون الأمم والطبقات الى حياة منزهة من سموم العداة وضغائن المنافسة ، متفتحة لأشواق النفس الرفيعة وأمثلتها العليا ، فيمضي النوع الانساني في جملة الى غاية كماله ، ويبلغ الانسان الفرد ما في وسعه أن يبلغه باجتهاده وتيسير بيئته ، مالكا

لزام فكره وعاطفته ، بنجوة من طغيان الجماعة عليه .

واذا انتقلنا من هذه النتيجة المرتقبة الى الأمل المشروع فمن الأمل المشروع ، أو من التفاؤل الحسن ، أن تؤمن بمصير الانسانية الى ايمان بالحق يعززه العلم ويلتقى فيه عالم المادة بعالم الغيب فلا يتنازعا ولا ينشطر بينهما الضمير الانسانى شطرين يورثانه مرض النفس ويبتليانه فى قرارة وجدانه بفصام دخيل ، يخيل اليه أنه الايمان ، وهو تقيض الايمان .

وترخص فى الأمل ، دون أن نجاوز به آفاق الأمل المشروع ، فنقول: اننا خلقاء ألا نياس من الأزمات التالية بعدما شهدناه من عواقب الأزمات الماضية : وقد سمحت لنا حربان عالميتان أن نقول مرة : « ان الصراع الأكبر الذى نشهده اليوم سينتهى أيضا الى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايح القوة البصيرة ، قوة العدل والحرية » .

وسمحت لنا أن نقول قبل ذلك : « أينما وجدت نفس تحسن أن تدرك فثم حقائق تدركها ، ولن نظمأ حاجة من حاجات النفس ومواردها — من تلك الحقائق — باقية . اللهم الا تلك الحاجة المحكوم عليها بالظمأ الأبدى ، والتي تموت ان رويت : وهى الحاجة الى الكمال ، وبها تتم الحاجات جميعا ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير ، وهذه ينابيع الانسان التى يعول عليها : كلما أضاع أملا أخرجت له أملا جديدا ، وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالأبناء المسرفين حتى يقنطوا ويضيقوا ذرعا فتفرج أزماتهم وتسرى عنهم وتزودهم بالنصائح الموقفة لهم ، وهذه الجدة العجوز لا تبض لك بأمل وعندك أمل خلافة ولا تفتح لك بابها وأمامك باب سواه ، وتقنعك كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير ،

فلا تكاد تصدقها حتى يتبين لك أنها خزانة لا تنفذ ، وكنز ذو أوان ،
يفتأ يتجدد ولا يتبدد» (١) .

ولقد كان انسان الأمس كفتا لأزماته ، ولا يثوده الغد أن يلقي
عظائمه بما هو أعظم منها ، أفقا بعد أفق ، وقمة فوق قمة ، ومصيرا وراء
مصير .

عباس محمود العقاد

(١) من رسالة للمؤلف باسم « مجمع الاحياء » كتبت في أثناء الحرب
العالية الاولى ، وتمت في أثناء الحرب العالمية الثانية .